ابراهيم الكوني

الوقائع المفقودة من سيرة المجوس

الربة الحجرية

ونصوص أخرى





هذا النصُّ هو فضٌ لتاريخ الصحراء من خلال الكشف عن أساطيرها ورموزها وأحجارها المسكونة بروح الأسلاف وتعاويذهم وتمائمهم.

وهو استعادة لخبرات روحية قام بها أهل الصحراء التائقون إلى الحرية والباحثون عن الله والحقيقة والسكينة بحيث يندفعون ـ أو تدفعهم الأقدار ـ في معاناة وجودية خلف مُثُل لا يمكن تحقيقها في الواقع، وهم يعيشون هذا التوتر بين الحلم والواقع، بين المثال والوجود كضريبة لا مفرَّ منها يدفعها الكائن البشري ثمناً لوجوده في العالم.

تحضر هنا الشخصيات التي سبق أن تعرَّفنا عليها في «ملحمة المجوس» مطالبة مبدعها إنطاقها والتعبير عن هواجسها وتجاربها وخبراتها الخفيَّة المندسة في خفايا الروح والذاكرة: الزعيم «آدَه» الذي حمل وزر الزعامة وعاش متردداً بين عقيدة التخلي ومسؤولياته عن أهل القبيلة؛ «تافاوت» الأنثى التي كتب عليها القدر إنقاذ سلالة القبيلة من غول العدم، المعماري «آخموك» باني «واو» الحجرية لتكون على مثال الفردوس المفقود. أمّا ما يتخلل العمل بأسره فهو روح «الدرويش» الذي اجتثَّ عضلة الإثم ليحرر نفسه من التردد بين رغبات الجسد وصفاء القلب ليكتشف أن الحل الوحيد هو في الفناء.

ولعلَّ استعادة أساطير أهل الصحراء، وتحليل تشكُّلها في وعي الجماعة، والتبادل بين الأسطوري والواقعي في أصالة مستمرة دائبة بين عالمين يتوحَّدان في عالم واحد هو ما يمنح أدب إبراهيم الكوني سموّه وطابعه المميَّز.

دار التنوير للطباعة والنشر

تاسيلي للنشر والإعلام

ابراهيم الكوني

الوقائع المفقودة من سيرة المجوس

(ونصوص اخرى)

الربة الحجرية

* إبراهيم الكوني: **الوقائع المفقودة من سيرة المجوس.**
* الطبعة الأولى: ١٩٩٢.

* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر **تاسيلي للنشر والاعلام**

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No.4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* **المركز الرئيسي:**
الصنوبرة ـ أول نزلة الللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩
ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

الربة الحجرية

أنيري مكان البدر إنْ أفل البدر
وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة نورها
وليس لها منكِ المحاجر والثغر

عمر بن أبي ربيعة

صفحة من كتاب الصحراء

بعد أن أُصيب الدرويش بالمسِّ، وقبل أن يرفع يداً مجبولة بالقداسة والتصميم ليجتثَّ عضلة الإثم ويتخلَّص من عرق الشيطان، بعد أن اقتحمت عليه الأميرة قفص السرّ ليصبح عصفور النّور مهدَّداً بالاختلاس والامتلاك والاستلاب، وقبل أن تنزل المدية السحريّة لتقطع رأس الحياة في الحيّة المدسوسة أسفل السُّرّة. في هذا البرزخ الواقع بين الـ «ما بعد» والـ «ما قبل»، في هذه المسافة المحصورة بين السهل ووادي الطّلح، تقع تادرارت. وفي تادرارت تقوم القمم الجليلة التي انفصلت عن السماء ونزلت إلى الأرض ليستظلَّ بها الأسلاف ويتخذوها بيوتاً يسكنون إليها، وجدراناً ينحتون عليها رموز الرحلة المجهولة. تحت جدار من هذه الجدران استظلَّ الدرويش بنار القيلولة وهو يلهث وراء «اوداد» ليبلغه وصيّة الأميرة. تحت هذه الصخرة التي فصلها الزمان عن الجدار المقدّس هجع موسى ليشقى بنار أقسى من نار القيلولة، ويداوي الجرح الذي يهدِّد عصفور النور في قفصه المنيع. تحت الحجر الغامض، القديم، الذي يحفظ سيرة الآلهة ويكتم في صدره تاريخ الصحراء، رأى موسى خيال الربّة الحجرية لأول مرة. كانت تقف مكابرة في مقامها الخالد. تنظر إلى القمم المواجهة في الأفق البعيد، تروي تجربة أخرى في العشق بلسان السرِّ، بلغة السكون الأبدي الذي لا تعرِف الصحراء العظمى لغة سواه. ولا يعرف الدرويش لماذا رأى في قامتها المديدة، وحسنها الخفي، ونظرتها السريّة، خيال الأميرة «تينيري» برغم محاولات القِبْلي أن

يقتطع منها نصيبه في غزواته الموسمية. ولم يجد نفسه يتابعها بإصبعه المبلل بدموعه لأنه اكتشف الشّبه، ولكنه احترق وفقد الصواب لأنه اكتشف سرّاً أقسى. إذْ أخبره وجد الحنين أن المخلوق إذا عشق مخلوقاً إرتفع المعشوق وابتعد إلى برزخ المحال. يستحيل الوصل بالمعشوق لأنه يدخل الحرم ويتواصل في اللّه. وإذا بلغ المعشوق مرتبة الإله انقطع الوصل واستحال تملّكه. هنا يقوم الخيار المميت: فإمّا أن تخطو إلى الأمام وتملكه فتذوب فيه، تتوحّد به، تتلاشى، وتفقد نفسك إلى الأبد فتشرك باللّه مخلوقاً أرضياً تعرف أنّه لم يكتسب الكمال الإلهي ولم يكنْ أهلاً لأن يحلّ محل اللّه الموجود في كل زمان وكل مكان وليس كمثله شيء. وإمّا أن تتراجع، ترجع إلى الوراء، وتترك أهل الباطل يعبدون أوثانهم البشرية في النساء ويسلمون لهنَّ في اجسادهم وأرواحهم ليستبدلوهنّ بالذي ليس كمثله شيء.

ولا يعرف لماذا أوحت له الإلهة المثبّتة في الحجر بالخطر، ووضعته في النقطة التي تتقاطع فيها الطرق. وقد أحسَّ بالخطر ورأى غول الظلمات يتوعده عندما تأمّل نظرة الإلهة إلى الأفق البعيد. نظرة تحمل نداءً من الماضي المجهول، وتنقله إلى الخلف عبر الأجيال.

ولكن مَنْ غير عجائز تادرارت، اللائي عشن في الكهوف ورضعن حليب الجنّيات، يستطيع أن يعرف سرّ الربّة الحجرية ويروي قصتها للأجيال؟

ومَنْ غير الحجر الصارم، الصبور، الخالد، يستطيع أن يتلقى الأمانة، ويدافع عن الرمز، ويحفظ وصايا الأسلاف من غدر الزمان وقساوة القبلي؟

مَنْ غير هذه الألواح المكابرة، الصموتة، الجامدة، الحزينة، وهبت الاحتفاظ بالأسرار: أسرار الآلهة، وأسرار البشر. فصارت بذلك الصفحات القاسية من كتاب الصحراء؟

هذه الصفحة القاسية، هذا الحجر المكابر، لم يبخل على الدرويش في ذلك اليوم، فحدّثه، بلسان العجائز الحكيمات، عن سرّ الآلهة الحجرية.

(١)

استقلَّ بها عن أهلها في تاسيلي بعد العرس بثلاثة أشهر، ونزل بها تادرارت كي يلتحق بالمراعي ويعتني بالماشية. أخذها من أهلها قبل مرور العام فاستاءت الحياة وقالت له على انفراد:

ـ هل تظنّنا نحتفظ بالعروس عاماً بعد الزواج إمتثالاً لمشيئة الأسلاف وحدهم؟ ألا تدري أن الاستقلال بالمرأة قبل مرور اثني عشر شهراً في بيت أمّها يعرّضها لعدوان الجنّ؟

يومها طأطأ رأسه وأجاب الحياة:

ـ الذئابُ فتكت بثلث القطيع. والجمال شَرَدَتْ إلى صحاري مساك، وإذا لم تُخْلِ عمّتي سبيلي مع ابنتها فستجد نفسها تؤوي رجلاً خائباً، سيجلب لها العار، لأنه لن يجد ما يفعله إلاّ أن ينجب لها من إبنتها أولاداً ستضطر أن تعولهم نيابة عنه.

شدّت لحافها حول رأسها قبل أن تقول:

ـ كما تشاء، ولكن الاستقلال بعروس قبل مرور الإثني عشر شهراً مخاطرة كبيرة. للجنِّ قوانينهم وعلينا أن نلتزم بالعهد الذي ورثناه عن الأسلاف.

عدَّل من وضع عمامته وبحث عن العبارة:

ـ في قبائل الجن يوجد النبلاء. قابلتهم في تادرارت وعرفت منهم خَلْقاً كثيراً.

سكتت لحظة. تراجعت خطوة لتفسح الطريق لطابور النمل المنهمك في بناء مملكته:

ـ افعلْ ما تشاء، ولكن لا تظن أبداً أنّك أقنعتني!

(٢)

كانت العروس يتيمة الأب، وكان هو يتيم الأم والأب. عاش مع الأمّ في تادرارت السماوية، متنقلاً بين المغاور والمراعي والمقاطع الحجرية الجليلة. لم يعرف أباً. ولم يتخيّل أن مخلوقاً شارك أمّه الحياة ليخلقه من زوال لو لم تخبره الأمّ وتقصّ عليه السيرة من نهايتها. قالت إنه سقط من القمة الجبلية وهو يطارد الودّان المقدّس المسكون بروح الأسلاف. لم تكتفِ بالإخبار، ولكنها ما لبثت أن كشفت له سرّ المطاردة. قالت إنه لم يكن ليرتكب الإثم لو لم يحتجب الماء وتحترق تادرارت بالجفاف ثلاثة أعوام متوالية، وانتهت إلى أنه دفع الثمن لأنه أراد أن ينقذ ذريته من الجوع، لأن الصحراوي لا يصطاد الودّان المقدّس إلّا إذا أشرف على الانقراض ورأى سلالته مهدّدة بالفناء. نال الأب الجزاء ولكنه أنقذ النسل من الزوال. ولكن العجوز أومأت إلى أن الحياة ستتوقف في تادرارت إذا لم تتواصل الذرية في الحفيد. لم يفهم يومها الإشارة فأوضحت وهي تتمايل يميناً ويساراً مع شكوة الحليب:

ـ إذا أردت أن تعرف السرّ فانظرْ إلى الماعز. كيف يتكاثر المعز إذا لم يلتقِ الذكر بالأنثى؟

أخفى وجهه وراء القناع خجلاً فتقدّمت العجوز ومزّقت الحجاب عن الحياء:

لماذا عليك أن تخجل عندما يتعلّق الحال بالمصير؟ لماذا تواري وجهك إذا كانت الحياة في تادرارت تتعرّض لخطر الزوال؟ لو شعر أبوك بالحياء لما جئت إلى الصحراء.

قال بضيق:

ـ لا حاجة بي لأحد.

فتوقّفت عن التمايل لتحتجّ:

ـ ماذا أسمع؟ إذا رفض رجل أن يقترن بامرأة تبرّأت منه الصحراء. المرأة قَدَرُ الرجل. هذه هي الشريعة الوحيدة التي تعترف بها تادرارت ويقرُّها كل الوطن الصحراوي.

وكي تقطع عليه الطريق إلى الإعتراض كشفت عن خطتها:

ـ غداً سنرحل لزيارة الخال في تاسيلي. سترى أن في بيته تأوي أنثى يقول لها رجال العشيرة عند غياب البدر: «إكشفي عن وجهك يا تامدّورت لأننا نريد أن نحلب نوقنا والبدر غاب» فتكشف تامدّورت عن وجهها وتضيء لهم ظلمات الليالي الظلماء. فمنْ يرفض إمرأة تضيء الصحراء بوجهها وتنافس بجمالها بدر السماء؟

فاض صدره بدفءٍ مجهولٍ، فاعدّ في الغد الجمل استعداداً للسفر.

(٣)

لا ينكر أنّه سمعها تتحدّث عن إبنة الخال في ساعات الفراغ، ولكنه لم يتوقّع أن تنافس «تانّس»(*) أو تحتلّ بوجهها محل البدر عندما يتغيّب عن الصحراء ويتسلل ليبدأ رحلة أخرى في الخفاء. مكثا مع الخال أياماً. إتفقت معه الأمّ على تنظيم شعائر الفرح في الربيع. وعادا إلى تادرارت لتجميع الإبل والاهتمام بالمواشي. ولكن الأمّ رحلت قبل أن تشارك في شعائر الربيع.

(*) تانّس او «تانيت»: إلهة الخصب والجمال عند قدماء الليبيين.

شعرت بوجع مفاجىء في الصدر فعانت من نوبة سعال لم تمهلها سوى ثلاثة أيام.

سافرت في رحلة أخرى وتركته وحيداً. توارت في رحلة السر وتركته في رحلة الباطل والشقاء. إلتحقت بالوالد في موكب المجهول وبقي هو ليرعى الماشية وينقذ السلالة من الفناء. نعم. لا شكّ أنها تركته لحساب. تركته ليتولّى تنفيذ الوصيَّة القديمة التي توارثوها عن الأسلاف. الوصية التي تحفظ النسل وتحمي الحياة في تادرارت. عليه أن يحرص على تنظيم الشعائر ويقترن بالبدر السماوي إذا شاء أن ينال رضى الأمّ ويفوز بمباركة الاباء والأسلاف.

هاجر إلى تاسيلي وكشف للخال عن رغبته في إتمام الطقوس قبل حلول الربيع.

(٤)

وجد نفسه في رحلة الأسرار. بدأت الشعائر بالحبس في قشع من جلود الحيوانات البريّة. إحتجب عن رؤية الخال وأمّ العروس وكل من يمتُّ له بصلة قربى. بعث الخال بأحد الرعاة فجاء بالرعاة والمهاجرين والعابرين إلى داخل القارة في رحلات القوافل. جاء أهل تاسيلي وجاءت معهم النساء أيضاً. بدأن يعقدن حلقات غنائية في حفلتين إحداهما نهاريّة والأخرى ليليّة. جاءه رجل مهيب طويل القامة، مدثَّر باللباس الاحتفاليّ الأزرق، ليشرف على الاحتجاب. كان صموتاً، غامضاً، ولكنه مولع بالغناء والمواويل الصحراوية الشجنيّة. الرجل قال إن اسمه «آكّا»، ينتمي بأصول إلى تادرارت، ويعيش منذ سنوات متنقلاً بين المغاور والكهوف ولكن بقية الشباب الذين شاركوا في الشعائر قالوا إنه خسّ(*) أنجبه أب من أهل تادرارت من أمّ جنيّة. ولكن «آكّا» لم يطعن في الانتماء. بل إبتسم ومال على العريس وكشف له عن

(*) الخسّ: مخلوق بين الإنسان والجان.

سرّ جديد. قال له في الليل عندما انصرف الشباب: «سمعتهم يتهامسون عن صلة القربى بيني وبين الجنّ». إنهم لا يعلمون أنهم ينتمون جميعاً إلى أهل الخفاء. فمتى قطع أسلافنا الصلات مع الجنّ أو توقفوا عن التزاوج معهم؟ أعرفُ إمرأة في آهجّار تعاشر جنيّاً، وأعرف رجالاً كثيرين في تاسيلي الجنوبية يتخذون من الجنيات زوجات. أردت أن أقول إنّي لا أنتمي بصلة القربى لأهل تاسيلي فقط ولكنّي على قرابة بك أيضاً من جهة الأمّ. أنت أيضاً تنتمي إلى الجنّ. قال بوخا: «أمّي لم تحدثني بهذه القرابة». ضحك «آكّا» بغموض وأنزل طرف عمامته العلوي على عينيه. أخبر بيقين: «وهل تستطيع الأمّ أن تخبرك بكل شيء؟ يكفي أنها أخبرتك بوصية الأسلاف وأقنعتك أن حماية الأصل من الزوال لن يتمّ إلاّ بالالتحام بالأنثى. تلك كانت وصية أهل الخفاء أيضاً!». هتف بوخا: «أهل الخفاء؟». أجاب الجنيّ المهيب ببرود الجان: «نعم. تلك وصية الجنّ أيضاً. مصير الإنسان في الصحراء يهمهم أيضاً. أنت لا تعرف أن الارتباط بين الفريقين أزلي. إذا اختفى الإنس من الصحراء زال الجنّ من الخفاء أيضاً». ذُهِل بوخا. ظلّ يحدِّق في وجه الرجل الخفي طويلاً. تراجعت العتمة، ورفع القمر رأساً متردداً خجولاً. تكلّم بوخا: «لا أخفي عليك أن هذا مدهش. ظننت أن بينهم وبين الناس خصومة، وزوال أهل الصحراء سوف يسرُّهم كثيراً». علّق سفير الخفاء: «أنت تخطىء في الظنّ. كل مخلوقات الصحراء تنتمي إلى بعضها بصلة قرابة. بعضنا جاء من سلالة الودّان، وقبائل صحراوية أخرى تنتمي بأصلها إلى الضبّ. وعشائر كثيرة من أهل الخفاء ينتمون بأصولهم إلى الغزلان والضِّباب. والجنّ يعودون من الظلمات ويتبدّون في أجسام أهل الصحراء ليغنّوا ويعشقوا الأنسيات ويقعوا في الوجد. هل تمعّنت النظر في حلقة النساء أثناء حفل النهار؟ ما ظنّك: كَمْ حسناء من بينهن تنتمي إلى الجنّ؟». سكت العريس ثم قال: «الحق أني رأيت بينهن حسان أصبنني بالدُّوار. لا يملك أن يتمتع بهذا الحسن إلاّ الجنيّات». قال «آكّا»: «أصبت، بينهن ثلاث جنيّات.

جمال الجنيّة لا يخطئه البصر. وبرغم ذلك، فإن الحُسن ليس قاصراً على الجنيّات». لم يعقّب بوخا فواصل آكّا: «برهاني على ذلك تامدّورت. تستطيع أن تنافس بحسنها أي جنيّة. وبرغم ذلك فجمالها صحراوي. حسنها أنسي مستمد من جهة الأم». خالف العريس عرف الوقار وهتف بوجل العشّاق: «حقّاً؟». حدّق فيه الشبح الخفي طويلاً قبل أن يهزّ عمامته الزرقاء علامة الموافقة.

(٥)

قبل أن تبلغ شعائر الإقتران ذروتها في ليلة التسليم(*) قام القيِّم على الحجاب وارتكب الخطأ الذي أثار استنكار الشباب وأرجع له أهل القرينة كل البلاء التالي. خالف «آكّا» الغامض شريعة الأسلاف فجرّد خباء القرين من الأسلحة وكل الأدوات التي رُشِقت خصيصاً لإفزاع أهل الخفاء وحماية القرين من أذى الجنّ. نزع المدية المغروسة عند الركيزة لتحصين رأس القرين المحتجب، وأبعد السيف المعلّق في المدخل لاعتراض المرَدَة المتسترين بالظلمات.

أتلف صرّة الشّيح التي علّقتها إحدى العجائز في زاوية الخباء سرّاً. ولا يعرف أحد كيف غافل القرين المسكين وجرّده من تميمة قديمة ورثها عن أمّه محفوظة في قطعة من الفضة موسومة برموز السحرة. اكتشف الشباب أن يده قد إمتدت وأبعدت حتى التعاويذ الخفيّة التي دفنتها العجائز حول الخباء في مخابىء سرية تحت التراب. اكتشف الشبان المكيدة وشعروا بالخطر. انتظروا حتى انقضى حفل الليل وانصرفت النساء. تجمّعوا وواجهوه بالخطيئة. قام شاب نحيل، يرتدي عمامة رمادية، ادّعى أنه ينتمي للقرينة بصلة قرابة، وواجه آكّا بالاتهام:

(*) التسليم: تسليم القرينة إلى القرين، أي ليلة الدخلة.

ـ لم نر، ولم نسمع رقيباً على الحجاب يجرِّد البيت من كل حصن ليتركه تحت رحمة أهل الخفاء. مهمة الرقيب أن يحمي البيت، ويأتي بالمزيد من الأسلحة، لا أن يجرُّده من الحماية ويتركه عارياً، أعزل، عرضة للعدوان. هذه مكيدة. أقسم بالإله «آمناي» أن هذه مكيدة من رجل مشبوه لا يعرف أحد من أين جاء.

قام شاب آخر. قصير القامة، يميل إلى البدانة. أحكم لثامه الباهت حول أنفه وقال:

ـ يُحسَن بنا أن نعرف هويّة الرقيب على الحجاب قبل أن نرفع في وجهه الاتهام. أجبْ هؤلاء الرجال يا «آكّا» على سؤالي: مَنْ أنت؟ من أين جئت؟ إلى أيّة قبيلة تنتمي؟ مَنْ زكّاك رقيباً على احتجاب القرين؟

هيمن صمت. تململ القمر وبعث بإيماءة في القبس السري. كشف الرقيب الخفي عن سرّه:

ـ لقد كشفت للقرين عن أصلي. أعيش متنقلاً بين المغاور، وأنتمي بأصلي إلى تادرارت وإلى أهل الخفاء أيضاً.

سَرَتْ همهمة بين الجمع. ولكن آكّا واصل بشجاعة:

ـ نعم. لا أنكر أنّي أنتمي إلى الجن بصلة قربى كما ينتمي لهم القرين، وكما ينتمي إلى هذا الشعب الصحراوي العريق الذي اختار استبدال حياة الخفاء بحياة الصحراء هرباً من أذى الانس، فاعلموا أنكم جميعاً تنتمون للجن بصلات قربى.

سادَ الصمت. ماتت التساؤلات وأيقن الجميع أنَّ «آكّا» الغامض جنّي حقيقي. لم ينطق أحدٌ باعتراض، فواصل الجنّي:

ـ نساؤكم أيضاً تنتمي إلى الجنّ. لقد رأيت منهن في حفل الليلة سبع نساء. وأكثركم يعاشر الجنّيات دون أن يعلم أنّه مقترن بجنيّة. كما ترون فإن

الصلات بينكم وبين أهل الخفاء لم تنقطع منذ تزاوجوا واختلطوا مع الأسلاف في الزمن الأول.

سكت لحظة ثم أكمل المفاجأة:

ـ أعترف لكم أني أبعدت الأسلحة من الخباء وجرَّدتُ الخباء من التمائم نزولاً عند رغبة أهل الخفاء. إنهم يريدون أن يشاركوا في الشعائر بسلام، ولا أخفي عنكم أيضاً أني نزلت عند رغبتهم بعد أنْ أخذتُ من زعيمهم الجليل تعهداً بإبعاد المَرَدةِ والأشرار. ألَا يرضيكم تعهّد زعيمهم الجليل؟

سكت الجمع. هبَّ الشاب النحيل:

ـ أنا لا أثق في زعيم الجنّ. كلنا يعلم أن الجان يتنكّر في مسوح الزعامة والجلال وهو يبيّت الأذى.

احتجَّ آكّا وحذَّر بصوتٍ خفي:

ـ من أساء الظنّ بالجنّ لحقوه بالأذى.

إعترض الشاب:

ـ لا أستطيع أن أثق بهم. لقد جرجروا والدي على الصخور وضربوه على رأسه حتى مات. وأنا لا أسيء الظنَّ الآن بسبب الثأر القديم، ولكن أحذِّر من أخطار تجريد القرين من السلاح. هذا فأل سيجرُّ اللعنة. شريعة الأسلاف علّمتنا ألّا نتجرّد من السلاح أبداً. القرين في خطر ما ظلَّ أعزل. القرين في خطر فاشهدوا يا شباب الصحراء على مكيدة سليل الجنّ!

لم يستجب «آكّا» للاستفزاز. عقَّب ببرود يليق بخسٍّ ينتمي إلى أهل الخفاء بصلة قرابة:

ـ لو لم أستبعدْ التعاويذ وقِطَعَ الحديد لما استمتعتم اليوم بغناء الآلهة.

استنكر الشاب النحيل:

ـ غناء الآلهة؟

ـ أجل، أجمل المواويل التي سمعتموها منذ قليل رددتها حناجر جنّيات خرجن من ظلمة الخفاء.

ردّد أكثر من صوت:

ـ عجيب. هذا يصعب على التصديق. يعجز رأسي المربوط باللثام عن الفهم.

حسم القرين النزاع. اعتدل في جلسته المهيبة فوق العرش الترابي الجليل وتكلَّم لأول مرّة:

ـ عليكم أن تُصدِّقوا. لقد أصاب جمالهن رأسي بالصداع، وعرفتهن بذاكرة تنتسب إلى أسلافهن بقرابة من جهة الأم.

سَكَت الجَمْع. اكتمل ميلاد الكوكب الفضي وغَمَر الخباء بفيض من الغموض.

(٦)

أجمع الشبان أن وقوع «آكّا» في [illegible](*) في الليلة التي سبقت التسليم كان الخطأ الثاني الذي عرَّض حياة القرين للخطر. فتركه بدون حماية وغاب في الرحلة الوجديّة الخفيَّة إلى الأصول. سقط مصروعاً عندما غنَّت حسناء مجهولة (أكّد الدهاة أنها تنتسب إلى أهل الخفاء) لحناً مستعاراً من غناء الريح في أفواه المغاور. تدحرج على الأرض مسافة طويلة. ثم شَرَعَ يرتجف وينتفض كحيوان ذبيح. هَرَع الشباب وبحثوا عن مدية يفكّون بها قيد الأسير المكبَّل بسلاسل الجنّ. ولكن الشاب النحيل اعترض سبيلهم وحاججهم:

ـ ألَمْ يَقُلْ هذا المشبوه أنه أخذ عهداً من سكّان الخفاء بألّا يتدخلوا

(*) آجولّل: الجَذْبُ. الوِجْدُ. الوقوع في حالة وجديّة.

لإفساد شعائرنا؟ أَلَمْ يجرِّد القرين من أسلحة الحديد ومفعول التمائم معتمداً على العهد المزعوم؟ اتركوه لنرى كيف سيعامله الأقرباء الذين أحسن بهم الظنّ، اتركوا الجنّي في قبضة الجنّ!

تركوه في قبضة الجنّ يوماً وليلة. ولكن أهل الخفاء لم يفوا بالوعد فتخلّوا عنه ليجد نفسه وحيداً،أعزل، في يد حفنة شقيّة من مَرَدَةِ الظلمات.

تدافع الشباب وعادوا يحمون حرم القرين ويحيطون البيت بالسيوف والسكاكين وتمائم السحرة. دفعوا بالشاب النحيل ليتولّى مراسم تلقين القرين بأسرار التسليم وخفايا الرحلة. ارتدى اللباس الأزرق، ثبّت على عمامته تميمة مجوسيّة ورثها أباً عن جدّ. وضع مدية موسومة برموز سحرية مدوّنة بلغة «الهوسا»، وذهب ليختلي بـ «بوخا» ليعلّمه أسرار الخروج والعشق والميلاد. دخل على القرين فوجده يعتلي عرشه الترابي بجوار الركيزة. أخرج المدية من كمّه وغرسها في التراب. تربّع في المواجهة وبدأ الطقوس السحرية باللغة السرية:

ـ إخرجْ!
ـ إلى أين؟

ـ إلى الريح. إلى الفراغ. إلى السحاب. إلى التراب. تتلاشى في القبلي. وتقطع معه الفراغ الصحراوي. يعترضك السحاب. تتململ في قطرة المطر. تهوي معها إلى أسفل. تعود إلى التراب. تحتضنك الأرض. تهدهدك. تدلّلك. تخرجك من أحشائها جنيناً في المهد. فتمرّغ أيها المخلوق المكابر، لأنك ستنزل إلى أسفل الأعماق مهما صعدت إلى أبعد السماوات.

انحنى «بوخا» وعفّر جبينه بالتراب.

واصل الرقيب الجديد على الحجاب يقرأ رموز الوصية الوثنية القديمة:

ـ أنت الآن وليد. أنت الآن مخلوق. أرني أنك مخلوق!

تمايل العريس يميناً ويساراً كالمجذوب فواصل الرقيب الجديد:

ـ إزحفْ على صدر الأم أيها المخلوق الوليد.

نزل «بوخا» من عرشه الترابي المهيب، وزحف على ركبتيه حتى بلغ زاوية الخباء كي يقدِّم البرهان أنه مخلوق قد اكتمل في الوليد.

لقّن رقيب الحجاب:

ـ الآن ينكشف سرّ وينفصل كوز الطين عن جسد الأم.

نهض «بوخا» ووقف على قدميه.

أغمض الرقيب عينيه. رتّل بصوت فاجع:

ـ تبدأ المسيرة الطويلة. الضياع. الضياع. ليس أمامك أيها المخلوق سوى طريق واحد هو: الضياع!

تحرّك القرين. تسكّع حول نفسه كالمجنون. أوقفه الرقيب بإشارة من يده. واصل قراءة الوصايا:

ـ لا يخرج المخلوق من متاهة الضياع إلاّ إذا عثر على لوح الطين الضائع. فتِّشْ عن أنثاك، ففي حضنها تجد الخلاص.

عاد القرين إلى الأرض. تربّع واستسلم لجلسة الوقار. تابع رجل الحجاب قراءة النص:

ـ تأتي الأنثى من تاسيلي، ويأتي الرجل من تادرارت. تلتقي أنثى انجبتها الأرض الصحراوية بذكرٍ أنجبته الأرض الصحراوية. يتحد كوز الطين بكوز الطين ويذهبان ليجتمعا في الأصل. من الاجتماع يولد النسل ويتواصل الأصل.

تمدّد بوخا على سريره الترابي الجليل. صلّب يديه على صدره وحَبَسَ الأنفاس.

اتخذ وضع الأموات.

أمّا الرقيب فنهض وخرج من حجاب الخباء. لوّح للجمع بيده مشيراً إلى أن رحلة قد انتهت ورحلة أخرى قد بدأت.

زغردت النساء. غنّت الشاعرة أبيات البشارة:

«ابتهجي يا صحراء، فإن تادرارت سوف تلتقي بتاسيلي فتمطر السماء».

(٧)

لم يتم فكّ أسر «آكّا» من قيود الجنّ إلّا ليلة المهرجان. فقد غنّت الصبايا الأناشيد الجنائزية الصحراوية لا لإرواء المجذوب من الظمأ المجهول، ولكن احتفالاً بالقِرَان الذي سيُعقَد بين طينين: طين تاسيلي، وطين تادرارت. أقبل الفرسان ورقصوا على المهاري، وتجمّع الصبيان ورقصوا بقلوبهم حزناً على اغترابهم الأبدي وخروجهم القديم من «واو». ويُقال إن الشجن الذي يعصف بالنبلاء الصحراويين ويدفعهم إلى الوجد والسقوط مستعار من هذا الاغتراب القدري الذي لم يعرف حتى الحكماء متى بدأ وعجز العرّافون أن يعرفوا متى ينتهي.

في الساحة الفسيحة الفاصلة بين حلقتي الرجال والنساء المغنيات تقاطع المهاري أزواجاً وأرباعاً في سعيهم المكابر بين مشرق الشمس ومغربها، كأنّهم يعيدون سيرة الحياة من الميلاد حتى المهات في هذا الانسجام المكرور، الخالد، الصبور. ينطلق فارسان مهيبان من جهة المشرق، يتحرّكان ببطء، وثقة، وكبرياء، نحو الجهة المعاكسة. في نفس اللحظة يبدأ فارسان من الكوكبة المقابلة في الغرب مسيرتها الغامضة، ليتقابل (رسُلُ الشروق والغروب) في القلب حيث تتجمّع المغنيات في حلقة تمجّد الاقتران بأناشيد شجنية حزينة، وترفع إلى هامة الفرسان المدثّرين بالزرقة والجلال سؤالاً فاجعاً: «بماذا جئتما يا فارسا المشرق؟» فتجيب الحوريات على لسان المغنيات: «بالحياة». وعن السؤال الموجّه لفارسي المغرب: «بماذا أتيتما يا فارسا المغرب؟» تجيب الجنيات بلسان الجنيات: «بالزوال والمهات». يهيمن الاكتئاب، وبرغم ذلك تولول

ألسن الصبايا بالزغاريد العاتية فترقص قلوب المهاري وتبتهج قلوب الفرسان.

ظلّ «آكّا» يجوب ويترنّح بجوار المغنيات. يحجل على رجله اليمنى، ثم يعود فيدرج على اليسرى. انفكّت ربطة عمامته مراراً فتطوّع الشباب وعقدوها على رأسه. ثم سقط على الأرض. تدحرج طويلاً قبل أن يهدأ ويهمد ويتخذ وضع الأموات أيضاً.

كان ذلك علامة الارتواء وإيماءً بالعودة من رحلته السريّة إلى المجهول.
حلّ الغسق.

بدأ خروج المهاري من السهل. تقاطعوا أزواجاً في المركز، وأعطوا الإشارة بحلول لحظة الوداع الأبدي. سيمضي رسول الغروب إلى الشرق حاملاً سؤاله الفاجع عن سرّ الحياة والميلاد. ويمضي فارس الشروق إلى الغرب حاملاً سؤاله الفاجع عن سرّ المهات والزوال.

(٨)

انتهت شعائر الوداع وبدأت شعائر التسليم.

خَرَجت النسوة بالقرينة مع حلول العتمة. بدأت مسيرة الميلاد والغموض والأسرار. طواف ينطلق من المجهول ويمضي إلى المجهول ليصنع في طريقه نَسْلاً يضمن استمرار لغز اسمه الحياة. طواف يبدأ من خباء الأم وينتهي في خباء القرين، ولكنه يستوعب في هذه المسافة الصغيرة مسافة أخرى بدأت في الأزل وتستمر إلى الأبد، واختصرت رحلة خالدة ظلّت مجهولة في الزمان وفي المكان. مسيرة مقدّسة لولاها لما وجد زمان ولا حدث مكان.

تسكعت النسوة بخطوٍ جنائزي، يتلحّفن بالأردية السوداء، ويرتلن تميمة مجوسية ورثنها عن جدّاتهن الجنيّات:

بسم اللّه، تانسميلاّ...
بسم اللّه، تانار أسّا
فولّليكنغ ايستدوا.
تكّا تيهنان يا للّه
آلس وانسديين
انكر سمّتل دونان
تكيكين تكيرارس
تكى يس كيس توياس
وتزغشم انكتهاس
وترزى ايغسان دغهاس
وتفرين تمارت ايتيس
وتنزيف تيغريت اينغاس
زكشيت ايريد د ـ تينى
آكناس الهرير تيلى
ـ تاغالتنّم توار اونان
تينمر ضونتت آيتهام
ـ ورّيغ اينلى انفودان
نسّوف اينلى نسكان
أنتا آيتكّن السّودان
آديرزّن ايبجان
ـ زاكشيغ. سادريغ. ساسويغ.
آهلوارغ آفول جيغ
ـ آستملو ملو تتريت.
ايسرظ ملو تتريت.
ايسرظ الفجور فجريت

أترج آيتهوك تامدّيت)(*)

كلّ يجلسن خلال في المسيرة الأبدية. يُعِدْن مقاطع من التراتيل الحزينة، ثم يواصلن الخطوات ببطء، وكبرياء، وفجيعة. راقبهن الرجال من أبعد مسافة. في حين تحلّق آخرون حول خباء القرين في انتظار وصول الموكب. في الخلاء هيمن السكون الصحراوي، لأن قمم تاسيلي تابعت الطقوس

(*) ـ بسم اللّه، وباللّه..
بسم اللّه للمرة السابعة
لإبنتنا وهي تخرج مع العشيّة
قاصدة بيت الرّب
فيا أيّها النّبيل، ترنّع وتمرّج
ها هي تأتي إليك تتهادى
تسترق الخطو كأنّها طيف
لم تُحِل الخال
لم تكسر عَظْماً في بطن الأم
لم تكشف لثاماً عن رأس الاب
لم ترفع صوتاً على الأخ
فاطعمها قمحاً وتمراً
واجعلْ لها من الحرير ظلاّ
مهرها مهري يتبعه سبع أخر
ـ مهرك قد ورد البئر
وها هم إخوتك يتجادلون في أمره
ـ لن أقبل بقصب تعافه الجمال الشائخة طعاماً!
أوثر قصب المهاري الرشيقة!
وحدها تستطيع أن تسافر إلى السودان
وتعود من هناك بالأساور والحلي.
ـ أنا أطعم. أنا أسمّن. أنا أروي،
فاليوم أستطيع أن أتباهى بالمقدرة.
ـ عندما تتلامع نجمة الصبح
ويشق قبس الفجر الأفق
لا تنس أن تخلي سبيل الأسيرة
وتفكّ عنها القيد.

بفضول، وشاعت أن تشرف، من بعيد، على القِرَان الذي سيستعطف السماء ويأتيها بالخصب عندما ستنتهي مراسم لقائها الموعود بـ«تادرارت».

كنَّ ينشدن بعض المقاطع ويرددنها حتى يصل النداء المرتّل، الموروث، الفاجع، إلى القمم ليسمعه الأسلاف الهاجعون في مقابرهم المستديرة على سفوح المرتفعات. وقد انقسمت الأصوات إلى فرقتين متحاورتين. تولّت شاعرة القبيلة الصوت الآخر ونصّبت نفسها رسولة مفوَّضة من القرينة، في حين انحازت كوكبة الصبايا وقمن بالردود الشعرية على لسان القرين. ترتّل الشاعرة بروح الجنّيات:

ـ تكيكين تكيرارس
تكي يس كيس، توياس
وتزغشم انكتهاس
وترزى ايغسان دغماس
وتفرين تمارت ايتيس
وتنزيف يتغريت اينغاس

فترنّم الصبايا بلسان القرين ويغنين الترتيل الجنائزي الموجع:

ـ تاغالتنّم توار أونان
تينمرضونتت آيتهام
فتشترط الشاعرة:

ـ ورّيغ اينلى انفودان
نسّوف اينلى نسكان
أنتا آيتكّن السّودان.

تستمر المحاورة الشعرية. ويتقدم الموكب خطوات أخرى، حتى يقف أخيراً عند أعتاب الخباء. تتوقف الابتهالات. تبدأ المفاوضات.

تجمّعت النسوة في المدخل. تقرفص القرين على عرشه الترابي المفروش

بكليمة تواتية. في أسفل العرش، تربّع الوصي على الاحتجاب. تكلّمت الشاعرة بلغة التورية والمجاز:

ـ ها نحن، الصبايا، نصل أخيراً وبنا ظمأ!

ساد الصمت. في الخارج تجمهر الشبان والصبيان وشرعوا يتصنتون. انتظرتِ القبيلة جواب الحرم المحتجب منذ أيام في محراب الخباء. ولكن الحرم لم يجب بكلمة المحراب فعلاً. في تجمّع الصبايا همس. علا نشيج القرينة أيضاً.

اضطرّت الشاعرة أن تلوّح بالإشارة من جديد:

ـ ها نحن، الصبايا، نصل أخيراً وبنا ظمأ.

مال الوصي على رأس القرين وهَمَس في أذنه بالسرّ. إبتعد «باخي» وتكلّم القرين بالجواب:

ـ مَنْ وَصَلَ وبه ظمأ فليرتوِ!

تنفّست الشاعرة بارتياح. رفعت صبية عقيرتها بزغرودة حماسية مفاجئة، في حين بكت القرينة بين أيديهن بصوت مسموع. استعارت الشاعرة لغة الجنيات لتواصل مباراة الأحاجي القديمة:

ـ ها نحن، الصبايا، نصل وبنا جوع!

نطق العرش هذه المرّة بالجواب دون تلقين من «باخي»:

ـ مَنْ وصل وبه جوع فليشبعْ!

زغردتِ الصبية وارتفع بكاء القرينة.

أخرج «باخي» جراباً جلدياً من زاوية الخباء. تناول منه ألبسة زرقاء ونعالاً جلدية تفوح بروائح العطر والصباغ المستعملة في نقش التمائم على الجلود. قدّم العطية للشاعرة. تفحصتها بعناية. ثم بدأت في تراتيل جنائزية

جديدة. توقّفت. اقتربت مراسم السيرة القديمة من الاكتمال. جاءت بالقرينة وسلّمتها في يد القرين يداً بيد، لتبدأ سيرة أخرى.

(٩)

كشفت لـه «تامـدّورت» عن وجهها الـذي ينافس بـدر السماء فـأضاءت ظلمات الحرم. غاب في الجسد الليلي الشهي، فَلَمْ يسمـع كيف استمر نشيـج آلهة الليل يجرح الليل الصحراوي البكر، تنفيذاً لمشيئة الأسلاف، وفزعـاً من مجاهل الولادة الجديدة.

(١٠)

أخـلى سبيل الأسـيرة عندمـا شقَّ القبس الفجري الأفق وأعـطى الإشارة الخفية التي توقف العشق، وتفصل جسد السماء عن جسد الصحراء. خـارج الحَرَم تلامعت نجمة الصبح فأيقن أنه تقيَّد بالوصية الشعرية.

ذهبت القرينة لبيت أهلها وذهب هو ليقضي حاجته. عَبَرَ المسافة العاريـة المؤديـة إلى الوديـان. استنشق هواء الفجـر وتمتّع بـالخـلاء المكشـوف. أحسَّ بنفسه خفيفاً مثل الصوف، مثل هبَّة ريح. خرج من حَبْسِ الحَـرَم وكسر قيد شعائر استمرّت سبعة أيام. فكيف لا يشعر أنّـه ولِد الآن، لأول مـرّة، كيف لا يحسُّ السعـادة مَنْ استولى عـلى إلهـة صحـراويـة تضيء الـظلمات بـوجههـا المـدوَّر؟ كيف لا يحس بأنـه خُلِق من جديـد مَنْ بدأ رحلة جـديدة كي يضـع بذرة مقدَّسة بها ينقذ الأصل من الانقراض ويبعث في الصحراء الحيـاة؟ كيف لا يفرح وقد استجاب لنداء الأم ونَفَّذ لها وصيّة الأسلاف؟

نـزل الـرابيـة المؤدِّيـة إلى الـوادي. هنـاك فقط اكتشف أنـه يمشي بـدون سلاح. تحسَّس كمَّه فوجد أنه نسي المدية في الخباء. انقلبت سعادته إلى شقاء في لحظة. تذكَّر تحذيرات «باخي» وقفز إلى رأسه موروث هائـل من الخرافـات التي تتحدَّث كيف يروق للجنّ أن تبطش بالقرين قبل أن يتمّ أسبـوع الحَرَم.

لا شيء يعادل فرح أهل الخفاء إذا اختلوا بالقرين خارج المحراب بـدون رفقة من وصي، أو سـلاح من حديـد أو قطعـة من نحاس. تـوقَّع الأذى واستعـدّ لتلقي الضربات. خُيِّل له أن الصحراء كلها تتهـدّده بالانتقـام. القمم الجبلية البعيدة تحوّلت إلى غيلان بشعة تتـوعَّد بـالشرّ. في تلك اللحظة سمـع حجارة تتدحرج وحركة وراء شجرة الطلح. تهيّأ لشجار مـع سكّان الـظلمات، ولكنه أبصر شبح رجل يرتدي لثاماً معتماً ويربط تكّـة السروال بعد أن قضى حـاجته أيضاً. ظلَّ شعر جلده يقف كالشوك، ولكن الشبح لم يبـدأ العدوان. اقـترب خـطوات فتحرَّك الـرجل نحـوه. تقـدَّم نحـوه أيضـاً. كـوَّر قبضتـه واستنفـر عضلاته. في النقطة التي كان يجب أن تشهـد المشادّة بـين رجل الأنس ومـارد الجن حـدثت مفاجـأة قلبت شهوة العـراك إلى دهشة. فقـد اكتشف بوخـا أن الشبح الخفي لم يكن جنيّاً مبعوثاً من أهل الخفاء، ولكنه الخال! نعم. الخال. فأي فألٍ سيرى في الرحلة التي لم تبـدأ؟ أيُّ لعنة سقـطت على رأسـه قبل أن يتحـرّك في مسـيرة غـامضـة ظنَّ منـذ قليـل أنها صراط السعـادة والخلود؟ أي مصيبـة خصَّه بهـا القدر؟ نعم. القـدر استبدل الجنّ بمـا هو أسـوأ من الجنّ. القـدر ساق الخـال في طريقـه بعد أن خـرج من المخـدع. من الحَـرَم. بعـد لحـظات من انفصال جسـد السـماء عن جسـد الصحـراء. بعـد لحـظات من انفصاله عن جسد نطفة الخال. أنفاسها ما زالت في أنفاسـه. رضابهـا ما زال في رضـابـه. حـرارة جسـدهـا مـا زالت تسري في جسـده. فكيف ستنتقم الصحراء؟ ماذا تخبىء السماء في هذه الإشارة؟

أشـاح بوجهـه وعاد عـلى عقبيه. ركض حتى دخـل الحجـاب، واحتمى بالحَرَم.

(١١)

جاءه باخي. حـدَّثه بمـا حدث. انشـغل بإشعـال النار. تـربَّع لإعـداد الشاي. قال:

ـ هـا هو الجـزاء قد بـدأ. استهنت بوصـايـا الأسـلاف، وسلَّمت أمـرك

لمخلوق مجهول تبيّن أنه من أهل الخفاء. جرَّدك من السيوف والحديد وتركك تحت رحمة سكّان الظلمات. الخطأ الأوّل في التنازل عن السلاح. ويبدو أنك استحسنت الأمر فخرجت من الحجاب بلا مدية. أنت قابلت الخال لأنّك تجرَّدت من المدية.

تمتم بوخا:

ـ أين آكّا؟ أريد أن أراه.

أجاب الوصي ببرود:

ـ لقد اختفى.

ـ اختفى؟

ـ ارتوى واختفى. لقد اختفى بعد أن إرتوى بساعات.

ـ أين يمكن أن يختفي؟

حَدَّجه باخي باستنكار:

ـ ألمْ يزعم أنّه على صلة قرابة بالجنّ؟ الخفاء هو وطنه الأصلي.

ـ وطنه؟

ـ الخفاء هو وطن الجنّ الوحيد. لا أشك في أنه عاد إلى الظلمات بعد أن حقق الغاية التي جاء من أجلها!

انتقل الاستنكار إلى القرين:

ـ أية غاية؟

بدأ باخي يخلط الشاي. غمغم بغموض:

ـ إذا خرج لك الخال وأنت محبوس في الحَرَم فهل يطمع الشرّير أن يحقق غاية أشرّ؟

تمتم بوخا بعد تردّد:

ـ أردت أن أراه.

اعترض باخي:

ـ يُحسَن ألّا تراه أبداً. ظهوره كان سبب النحس.

بدأ الشباب يصلون. خلعوا نعالهم بعيداً ودخلوا الحَرَم حفاة الأقدام. صافحوا القرين أولاً، ثم الوصي، ثمَّ تربعوا بوقار في المدخل.

وصلت أول كوكبة من الصبايا أيضاً، يحملن الطبول الجلدية والآلة الموسيقية ذات الوتر الوحيد. بعد قليل توجَّع الوتر الحزين بجرّة من الوتر السماوي الوحيد فتدفق النغم يروي فجيعة التيه الصحراوي الأبدي.

ـ بدأ أول حفل غنائي بعد التسليم.

(١٢)

ترك الحسناء في بيت أهلها وعاد إلى المواشي في «تادرارت». تشتت الإبل، وفتكت الذئاب بقطيع الماعز الذي تركه تحت إشراف أحد الرعاة. أهمله الراعي فضلَّ وتوغَّل في الوديان البعيدة. اختلت به الذئاب وفتكت بنصفه. جمّع الأغنام وجدَّ في أثر الإبل. أدرك بعض الجمال في «مساك صطّفت». واصل المسيرة حتى «مساك ملّت» فعثر على عدد من النوق، ولكنه لم يستطع أن يلمَّ شمل كل القطيع. عاد إلى تاسيلي وفاتح أهل القرينة بالانفصال. بعث أحد المهاجرين ليجسَّ النبض ويقنع الخال. ولكنه وجد أن المهاجر نفسه يحتاج إلى إقناع. مَكَثَ يوماً وليلة يحاججه ويحدثه عن قساوة الصحراء وضرورة الاستقلال بامرأته حتى يبني بيته ويصنع حياته. في النهاية قال إنه لا يرى الخلاص إلاَّ في الاستقلال، وإذا لم يتنازل له الأهل عن إبنتهم فسوف يملأ لهم البيت بالأحفاد الذين لن يجدوا مَنْ يعولهم، لأن الذئاب سوف تفتك بالماشية، والجَدْبَ سيقضي على الإبل. قَبِلَ المهاجر إبلاغ الخال، ولكنه لم يقتنع. عاد بعد يومين وأخبره أن الخال يرى أن قدر المرأة أن تتبع رجلها حالاً، ولكن عليه أن يقنع أمّ الفتاة بنفسه إذا أراد أن يقترف عملاً يخالف تعاليم الأسلاف. ويبدو أن الخال بَذَلَ جُهْداً عظيماً في سبيل إقناع الحماة، إذْ وجد السبيل أمامه ممهداً، ولم ينفق جهداً بطولياً في سبيل إقناعها.

في «تادرارت» طلع له من العراء.

خرج بحثاً عن الإبل في الوديان الجبلية فخرج له «آكّا» من الأرض الحمراء كأنه انفصل عن حجارتها الصلصالية الدامية. ينتعل مَدَاساً جلدياً بائداً. مقنَّعٌ بلثام بائس إمتصَّت منه الشمس لونه ووسمته بالعتمة والزوال. استبدل الثوب الأزرق بقفطان باهت نالت منه الشمس أيضاً. وقف تحت كتلة جبلية جليلة وراقبه وهو يقطع الوادي، المفروش بسجاد من الحجارة المحروقة بنيران البراكين، ويصعد نحو الكتلة الصخرية. تركه حتى اقترب. لم ينطق بكلمة. لم يأتِ بحركة. لم يومىء له بإشارة. وعندما رفع بوخا نظره، وميَّز المخلوق الآدمي عن اللحمة الحجرية الدامية، وتوقّف وتهيّأ لتلقي صفعة الجنّ، أو تباطأ ليستوعب الدهشة والقشعريرة، لم يبتسم «آكّا»، ولم يسدلْ طرف اللثام العلوي ليخفي عينيه.

استعاد بوخا رجولته وناور بالسؤال:

ـ هل أنت إنس أم جان؟

أجاب «آكّا» بلا تردد كأنّه انتظر هذا السؤال:

ـ وهل يوجد بين هذين المخلوقين فرق في تادرارت؟

ترافقا في جولة حول الصوامع الخرافية التي تتلاحم وتتعانق، ثم تنفصل وتتباعد في وديان تتلوّى وتتعرّج وتتمدّد إلى الصحاري الجنوبية المجهولة. عندما تتقارب رؤوس الأبنية الإلهية لتخنق الوديان السفلية تبدو رموز الأولين وخطوطهم واضحة عن لحمة الصلصال العريق. تبدو الأشكال البشرية والحيوانية المحفورة في لحمة الصخور عميقة ومهيبة كأنها تتهيأ للانفصال عن جسد الصلصال والنزول إلى الوديان وممارسة الحياة، في حين تبدو المخلوقات الأخرى المرسومة على لحمة الحجر بـ«تافتست»(*) والألوان الأخرى، كئيبة، حزينة، تستهين بالزمان، ولكنها تحتمي بالحجر وتتحصَّن بالصلصال خوفاً من حياة لن تأمن فيها غدر الزمان. فانقسم رُسُل الأسلاف إلى فريقين: الفريق المنقوش في جسد الصخر يتوثَّب توقاً للبعث، وشوقاً للحياة، في حين يوحي سلوك الفريق المرسوم بألوان الأرض، بدم الصحراء، بالزهد والاعتزال.

(*) تافتست: نوع من المغر الأحمر. استعمله فنانو ما قبل التاريخ في رسومهم على حجارة الصحراء الكبرى.

تكلّم بوخا:

ـ حيَّرني اختفاؤك. لقد بحثت عنك بعد تحرّرك من الأسر.

توقّف «آكّا» بجوار صخرة هائلة. مربعة الأضلاع.

قطعة من جبل. تدحرجت من علٍ واستقرَّت في صدر الوادي. انفصلت عن القمة السماوية إثر زلزال أرضي، أو صاعقة إلهية. كانت موسومة من الجهات الأربع برسوم الأسلاف ورموزهم ووصاياهم. وقد احتلَّ الجانب المطلَّ على الأرض المكشوفة كهنة وحسانٌ بأثداء خرافية. كان الرُسُل من الفريق المحفور الذي يتحرَّق شوقاً للتحرر من أَسْرِ الزمان والتاريخ، والانطلاق في الوادي البِكْرِ لممارسة شعائر الصيّد والعشق والغناء وترتيل صلوات الامتنان للآلهة.

وقف «أكّا» يتأمل كاهناً مهيباً، يضع على رأسه قناعاً من جلد مجهول، ويلوِّح في الهواء بسلاح كأنه رمح. تأمّله طويلاً. تبادل معه حديثاً غامضاً بلغة الجنّ السرية. ثم التفت وخرج من حَرَمِ الأسلاف ليجيب بوخا عن سؤاله الدنيوي:

ـ أردت أن أراك أيضاً لأحدِّثك بما رأيت في السرحلة، ولكن باخي منعني.

ـ حقاً؟

ـ ما يدري السلطان إذا تربَّع على العرش كيف يتصرَّف الأوصياء مع الرعايا؟

سكت بوخا لحظة. دَحْرَجَ حجارة مسكونة بسرّ الأسلاف، ثم قال:

- أرى أنّك تبحث لي عن المبررات، فهل غَفَرتَ لي؟
- مَنْ لم يغفر لم يذق طعماً لسعادة أو سكينة.
- هذه لغة الحكماء وزعماء القبائل، فهل لقَّنك حكماءُ الجنّ الحكمةَ؟
- مَنْ يستطيع أن يلقّن الحكمة غير الجنْ؟
- أنت لم تحدِّثني برحلتك. حدِّثني عن رحلة الوجد، والأسر. ماذا رأيت في الرحلة؟ كيف تحمَّلت القيد والأسر؟
- ألَمْ تقع في الوجد يوماً؟

هزّ بوخا رأسه بالنفي. دحرج حجراً آخر وأجاب:

- لست من أهل الوجد. لست من أهل السرّ.

علّق آكّا:

- لا أستطيع أن أصدِّق. تنتسب بقرابة للجن ولا تدخل في أهل السرّ؟
- لم أنعم بجنَّة السرّ. ربما لأن عرق الإنس في دمي غلب.

هلّل آكّا للاعتراف:

- نعم. في دمك يغلب عرق الإنس. هذا هو السر. لقد فهمت ذلك عندما شئت أن أتولّى شعائر الاحتجاب.
- لم أتحيَّز لأي طرف. لقد تركتكما للقدر.
- لو لم تقف في صفّه لما استولى على رقبتك واغتصب منّي الوصاية.
- لم أفعل ذلك إلّا بعد وقوعك في الأسر. لماذا ذهبت في الرحلة المجهولة وتركتني بدون حماية؟ ألا تدري أنّك عرَّضت حياتي للخطر؟
- الخطر في إعادة السيوف والحديد إلى الحَرَم. في إعادة السلاح وقع نقض العهد وبطل ميثاق أخذه أهل الخفاء على أنفسهم.

- باخي يؤكِّد العكس. قال إن تجريد الحَرَم من السلاح كان الخطأ الأول. ولولا هذا الخطأ لما بدأت أحداث الشؤم؟

توقَّف آكّا وسأل باهتمام؟

- الشؤم؟

- نعم. لقد خرجت لقضاء الحاجة في فجر اليوم الأوَّل للتسليم فخرج لي الخال وتقابلنا وجهاً لوجه.

قال آكّا بغموض:

- عرفت أن ذلك سيحدث.
- باخي أكَّد أن اللّقاء لم يكن ليتم لو لم أتجرَّد من السلاح.

سكت آكّا طويلاً. إنحرف الوادي شرقاً وبدأ عنقه يضيق بالصخور التي دفعتها الآلهة لإيقاف تدفّق السيول. قال آكّا:

- هناك شؤم آخر حجبه عنك باخي.

لم ينتظر آكّا فاكمل:

- القرينة لم تهرب ليلة التسليم.

توقَّف بوخا. في عينيه رأى آكّا بريقاً خفياً. واصل المسير وضرب حجارة بالعصا. عمَّ السكون الصحراوي. أنصتت القمم السماوية. تلاحقت أنفاس المخلوقات المقيمة على جدران الحجارة. همهم حكماء الجنّ وانتظروا الجواب. تكلَّم الرفيق قبل أن ينطق القرين.

- هذا أسوأ كثيراً من خروج الخال في العراء. وربما كان لقاء الخال سبباً للخلل الأوّل.

نطق بوخا باحتيار:

- لم يحدِّثني أحد بما حدث. لماذا لم يخبرني باخي بذلك؟
- أنا لم أشك أبداً أن استيلاء باخي على أمور الحَرَم كان مكيدة.
- مكيدة من أهل الصحراء أم من أهل الخفاء؟
- من أهل الصحراء يقيناً. لا يتقن المكائد مثل الإنس.

هيمن صمت طويل. توسَّل بوخا:

ـ لم تحدثني عن الرحلة. حدِّثني عن الأسر!

عـاد الأسلاف ينصتـون في الحجارة. استـرق الجن السمـع في الكهـوف العليـا. وبدل أن يتحـدّث آكّا عن رحلتـه الخفيـة إلى أرض المجهـول، رفـع صوته بنواح شعري فاجع:

الدّونيا تجرازانغ تمّندا
تاتّقيمد تتوبت آتنهجّا
دوضوف أنسيضنن أوغول ايلّله(*).

ردَّدت الكتـل الحجريـة النـداء الغنـائي الفـاجـع. وازدادت المخلوقـات المرسومة حزناً، في حين نزلت من عيون الحسان المحفورة دموع حارّة.

ثم تحدَّث آكّا عن الأسر بنفس الروح الفاجعة:
ـ شقي مَنْ لم ينعمْ بالسفر إلى الزمان الأوَّل. مسكين مَنْ حُرِم من اجتياز الصحراء، والعبور إلى مملكة الخفاء. بائس وضائع وخاسر مَنْ بقي في حـدود البدن رهيناً، ورضي بحدود الصحراء معقلاً، ولم يجرِّب أن يخرج إلى السرّ في الخفاء. لأن الخلود ليس في الصحراء، ولكنه حكر على الخفاء. فالخفاء وحده يملك السرّ الأوّل.

قاطعه بوخا بلهفة المخلوق التوّاقِ لمعرفة المجهول:
ـ هل رأيت الأجداد؟ خبِّرني عن الأجداد؟

ولكن آكّا المأخوذ مضى يسرد رواية أخرى:
ـ رأيت أرضاً محفورة بالوديان. في الوديان يجري الماء. السيول في الوديان تأتي من المجهول وتمضي إلى المجهول. تقعقع السماء بالـرعود فيتمـزَّق حجاب السحب ويكشف الـظلمات عن وجـوه الآلهـة. في السهـول الممـدودة تـرتفـع

(*) ما أنْ راقت لنا الحياة حتى أشرفت على الفناء.
وما تبقى من أيام لا يليق بغير التوبة
والمسحة والرجوع إلى الرب

قـامات الحقـول. في الحقـول يـرتع الـودّان والغزال والجـاموس. رأيت الإنس أيضـاً يحومـون فوق المـرتفعات، ويتحـايلون لاصطيـاد الودّان الجبـلي النبيل. رأيت سحـرة يحفرون صـورة إله المـرتفعات عـلى الصخور الملسـاء. ينقشـون الخيـال الإلهي الجليـل ويهمسـون بـالتميمـة السحـريـة: «اوداد. اوداد. اوداد»(*). يخطّون الاسم ويصبغونه في الشكل، في الرسم، بـ «تفتست» بالدم المستعار من بطن الأرض الحمراء. وعندما تكتمل العلامة وينتهي الساحر من النقش، يقبـل الودّان. يقـترب من التجمّع ويـذهب للدخـول في النقش، في الاسم، ويقـع في الفـخّ. يحيط بـه الصيّـادون ليـأكلوا من لحمـه المقـدّس. يتقاسمون الغـذاء الإلهي، ثم يرقصـون ويبكون ثـلاثة أيـام. نعم. لا بدّ أن يبكوا ثلاثة أيّام حتى يستـطيعوا أن يستـدرجوا إلهـاً جديـداً إلى الفخّ. ولكن الحكـماء يتجنّبون أن يسمّـوا الودّان بـالاسم. إنهم يستدعـونه بلقبـه المهيب: «آمـغـار»(**)، وإذا تأخـر عن المجيء ناحـوا بأصـوات فاجعـة: «آمغار تعـال إلينا. لا تترك أبناءك جوعى. لا تترك أبناءك للضياع. آمغار. آمغـار. تعال. اقترب. سوف نفرح بمجيئك ونسكن معك في الحجر. انظر، لقد أعددنا لك بجوارنا مأوى. سوف تسكن مع أبنائـك حجر الكهف إلى الأبـد». هذه لغـة الدّهاة الذين يتقنون التورية والتخاطب بالإشارة.

سكت آكّا، ولكنه ظلّ يرتجف. في عينيه لمع جنون الوجد.

(١٤)

آكّا قبل العرض.

إقترح بوخا أن يساعده في الرعي لقاء خمس معزات وجمـل واحد في كـل حـول. ولكن تامـدّورت مرضت وأصـابهـا الصـداع منـذ تلقّت منـه الـنظرة الأولى. اعترضت على استخدامه وقالت لقرينها:

(*) اوداد: الودّان
(**) آمغار: العجوز. الأب: الجدّ. زعيم القبيلة. كبير القوم.

ـ عَيْنُ هذا المخلوق ليست ككل العيون. لقد أصابني الصداع عندما وقعت عينه على وجهي.

ولكن بوخا لم يلتفت للاعتراض، كما استهان بدور العين في إصابة الرأس بالوجع. تماثلت الحسناء للشفاء وخرجت يوماً وراء قطيع الماعز. في المرعى خرج لها آكّا من الأرض كما خرج لقرينها في الوديان الجبلية. قفز قلبها من صدرها فزعاً فابتسم لها. تحرَّك نحوها خطوات فرأت في عينيه ما لم تره في عيني مخلوق. ابتعد وصعد الرابية المفروشة ببساط من الحصى. اختفى كما ظهر كأنّه جنّ. عادت تامدّورت إلى الخباء وقد أصابها الدوار والحمّى. هجعت بجوار الركيزة ولكنها لم تشعر بتحسّن. في المساء ساء الحال وبدأت تتقيأ. عاد القرين فأخفت عنه ظهور الراعي. أعدَّ لها قِدْراً من الشيح المخلوط بالبابونج البري. دهن جبينها بزيوت مستحضرة من الأدغال ووحوشها. نزف من جسدها العرق وتراجعت الحمّى. همست في أذن القرين قبل أن يأخذها النوم:

ـ مَنْ نظر إلى وجهك أكل قطعة من لحمك!

(١٥)

حدَّثته عن قدرة أشرار الصحراء في اختلاس حياة البشر، وسلب الدم من وجوههم بالنظر. رَوَتْ له نقلاً عن أمّها كيف غافلت جارة شريرة جدّتها من أمها وشربت منها الدم. كانت الجارة ساحرة جاءت من «كانو» هرباً من المجاعة التي عانت منها الأدغال في ذلك الزمان. أقامت معهم في تاسيلي، وتنقّلت مع قرينها في صحاري «آزجر». كانت خلاسية ماردة، ولكن القدر حرمها من الذريّة. وكان القرين يعيِّرها بالعقم ويصفها بأنها أرض جدباء عندما يتشاجران. يتنابزان بالألقاب دوماً ويتلاعنان بلغة «الهوسا». وقد اضطرَّت الجدة أن تتدخل مراراً لفضِّ الشجار، وتوسَّطت بينهما دائماً لمصالحتهما. ولم تدرِ أن مصالحة زوجين متخاصمين مخالفة لوصايا الكتاب

المفقود. فوجدت الجارة تهرع إليها ذات يوم حاسرة الرأس، شعثاء، جدائل شعرها الأكرت معفَّرة بحبيبات الرمل. وقطع الوَدَعِ والأصداف النهرية تتدلّى من الجدائل البائسة. وبرغم أن النار كانت تشتعل في عينيها الحمراوين إلاّ أنها لم تتخلّ عن مضغ اللبان. قالت له أن الأم حدثتها كثيراً عن عشق هذه المرأة للبان. تقايضه من تجار القوافل بالتّبر، ولا تكفّ عن مضغه حتى وهي نائمة. ولم يعرِف حتى قرينها سرّ هذا العشق. ولكن الجدّة لم تتيقن أن في العادة سرّاً له علاقة بالسحر إلاّ فيما بعد. أمّا في ذلك اليوم، فإن دخول هذه الجنيّة إلى الخباء وهي تتلهى بمضغ اللبان طمأن الجدّة وقالت لنفسها أن هيئتها الجنونية لن تكون إلاّ ثورة عابرة من ثورات زنوج الهوسا، لأن «آنهي» الضائع يقول إن الزنجي لن يكون زنجياً حقيقياً إذا لم تَنْتَبْهُ حالات الجنون.

ولكن حسن النيَّة خذل الجدَّة. فوجدت المرأة تقف فوق رأسها وترطن «بالهوسا»، ثمَّ تتناول حفنة من الرمل وتصبّها على رأس الجدة. وقبل أن تنصرف هددتها بسبابتها وحذرتها قائلة بلغة ركيكة أنها ستقتلها في المرة القادمة. ذُهِلَتْ الجدّة وساءلت الجارات عن السبب فقيل لها أن الغيرة هي التي سمّمت بدن الماردة الخلاسية، فظنَّت أن الجدّة تخطط في الخفاء للاستيلاء على زوجها. كانت الجدّة أرملة. مات زوجها (الجد من جهة الأم) بمكيدة سرّية إسمها «ضربة المخلب»، ولم ينجبا من الأبناء سوى الأم. بقيت الجدة مع أهلها، وتنقلت معهم في بحثهم عن العشب في مراعي آزجر. استسلمت للمصير الإلهي ونست الاقتران وسيرة الرجال طوال السنوات الماضية. وعندما فسَّرت لها الجارات سبب ثورة الجارة الخلاسية لم تستنكر التهمة الظالمة لبشاعتها فقط، ولكن لأنها أُحيت جوحاً قد اندمل، وأيقظت خاطراً أليماً قد دفنته مع القرين الذي مات بتلك المكيدة الفاجعة التي لا تُنْسَى. اشتعل صدرها بالحقد وسمّم دمها الإحساس بالظلم، فخرجت في نفس العشية ودخلت على الجارة الخلاسية فوجدتها تمضغ اللبان وتداعب القرين كأنّ شيئاً بينهما لم يحدث، كأنَّ خصامهما الصباحي كان مزحة طفولية. إزداد الحقد

وأعماها الغضب. قفزت فوقها وداسَتْ بركبتها على نحرها. عجزت المرأة الشريرة أن تخلِّص نفسها وعجز قرينها أن ينتزعها من رقبة القرينة فخرج واستنجد بالجيران. هَرَعَ الخلق وتكأكأوا على الجدة المستميتة فوق جسد الجارة. ولم يخلِّصها من الموت إلاَّ جَمْع من الرجال.

ظلَّت عينا الجارة جاحظتين والزبد يعلو شفتيها حتى ظنَّ الجميع أنّها ماتت. بقيت ملقاة على ظهرها، مغمى عليها، حتى ظهر اليوم التالي.

مضت شهور على هذه المشاجرة المميتة. رقَّ قلب السماء وسقطت أمطار في الوديان الجبلية الشرقية. إنتقل النَّجْعُ إلى المراعي وفرحت العشائر بالربيع. نَسَتِ الجدّة ما حَدَث، وخالفت وصايا الكتاب المفقود مرّة أخرى عندما ظنّت أن أهل الهوسا يمكن أن ينسوا الإساءة.

دسَّت الساحرة الشريرة الانتقام في السرّ. انتظرت حتى اختلت بها في المرعى. فجاءتها بعيون تشتعل بالإحمرار والجنون ووقفت فوق رأسها دون أن تتوقف عن مضغ لبانها الكريه. ابتسمت بخبث الساحرات وسلَّطت على وجهها النظر وشَرَعَت تمصُّ الدم من عروقها. تزلزل رأس الجدَّة بالدوار، وأحاط بها الأشباح والمَرَدَة. حاولت أن تحتكم إلى التمائم، ولكنها عجزت عن النطق وقيَّد الجنّ لسانها وأطرافها. عجزت حتى عن ذكر إسم الإله «آمناي». بعد قليل بدأ أهل الظلمات يضربون الأرض بأقدامهم فَمَادَتِ الصحراء ورأت بعينيها كيف تركض بها الأرض وتبتعد عن القطعان. إختفتِ القطعان وابتعدت عن الرعاة والخلق، فانفردت بها الجنيَّة الخلاسية وألَّبت عليها الجنّ. رأت كيف تحدِّق الساحرة في وجهها لتسرق منه الدم والحياة. كانت تبتسم وتلوك اللبان. شحبت الجدة وهربت منها الحياة. في النهاية استطاعت أن تصرخ. بعد الصرخة تحررت يدها اليمنى، فأخذت حفنة التراب ورمتها في وجه الجنية. ترنَّحت وغطَّت عينيها الوحشيتين بيديها. فاستطاعت الجدَّة أن تهرب وتحتمي بالرعاة. كانت شاحبة، هزيلة، ممصوصة الوجنتين، هرب

الدم من وجهها وأكلت الماردة الشريرة اللحم من جسمها.

ماتت بعد ثلاثة أيام.

(١٦)

في ليلة أخرى تحدَّثت «تامدّورت» عن حكمة القناع.

قالت إن القدماء اتخذوا اللثام حجاباً كي يمنعوا الأغراب الأشرار من أكل وجوههم بالنظر، لأن القناع حصَّن البدن ضد العين الشريرة. وقد تعلَّموا هذه الحيلة الصحراوية الحكيمة بعد تجارب فاجعة مع قبائل الأدغال. ويُروَى أن أهل «كانو» لم يعرفوا، في الزمان القديم، سلاحاً آخر غير العين، يدافعون بها عن أنفسهم، ويبيدون القبائل المعادية. ولكنهم تمادوا مع الزمن وأصبحوا يغزون الصحراء وينهبون البيوت ويبيدون القبائل الشمالية مُسَلَّحين بعيونهم الوحشية. ولم يهتدِ الصحراويون للقناع إلاَّ بعد أن أشرفوا على الفناء. استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم ويطاردوا العيون المعادية ويطهِّروا الصحراء من سحرهم. ولكن السَحَرة عادوا إلى الصحراء بحيلة أخرى. فكانوا يقتلون بالتمائم المجوسية كل إنسي يهتدون إلى اسمه. ولم يكتشف الصحراويون سرَّ التميمة القاتلة إلاَّ بعد جهاد طويل. فأخفوا أسماءهم الحقيقية وتنادوا بالألقاب المستعارة. أبطلوا مفعول هذا السحر أيضاً، ولكن السحرة العتاة لم يستسلموا. فعادوا لغزو الصحراء بالضربة القبيحة المسماة «المخلب».

بهذه الضربة الكريهة أُصيب جدّ «تامدّورت» من جهة الأم.

رَوَتِ المصيبةَ نقلاً عن الأم أيضاً.

قالت إنه كان صحراوياً حقيقياً يرتجل الشعر، يغني الألحان السلفية الحزينة، ويعشق الصبايا كما يليق بالفارس. وكان يسرج جمله ويسري ليلاً في

سفر طويل إلى النجوع المجاورة ليمارس : ⵣⵔⵟ(*)، مع المعشوقات الفاتنات من القبائل الأخرى، ويُقال إنه اختلى، في إحدى هذه الجولات الغرامية، بفتاة خلاسيّة طلبها شاب ينتمي إلى تينبكتو، ولكنه يتقن استعمال الضرب بـ«المخلب» المخيف، فاستضافه على العشاء ودسَّ له خمسة أظافر بشرية في الطعام. فأصابه المخلب في الكلية. وما أن غادر الجدّ نجع الغريم وعاد إلى القبيلة حتى صَرَعَتْه الأوجاع الشيطانية. أوجاع لم تفد كل حيل العجائز الصحراوية في تهدئتها أو التخفيف من وحشيتها. فَقِدَ فيه الأهلُ الأملَ، ولكن القدر جاء إلى القبيلة بقافلة عابرة يرافقها حكيم عليم بأسرار سحر الأدغال. أَخْرَجَ من جِرابه حَجراً س النطرون. أَذَابه في قِدْرٍ من الماء وسقاه للمريض. سهر فوق رأسه عدَّة ليالٍ وهو يسقيه مياه النطرون. وما أن هاجمته نوبة القيء حتى قَذَف معه أول مخلب بشري. وظلَّ يتقيَّأ مخلباً آدمياً بشعاً كل يوم إلى أن بلغ العدد خمسة مخالب. هنا كُتِبت النجاة للمريض وقال المهاجر أنّ مهمته قد انتهت.

بدأت القبيلة تتحوَّط وتعامل الأظافر بارتياب وقداسة منذ ذلك اليوم. فإذا نَزَعَ الإنسان أظافره أخفاها عن الأنظار، وذهب ليدفنها بعيداً مخافة أن تمتدَّ إليها أيدي السحرة وتستعملها في صنع «المخلب» الكريه.

(١٧)

هَامَ «آكّا» في المراعي. تنقَّل في الصحاري. عبر الوديان وصعد إلى العراء الموحش في «مساك صطّفت». إعتزل هناك أياماً. ولا يعلم عمَّا إذا كان الملاك هو الذي نَزَل من السماوات، أم أن الوحي الغامض جاءه من صخور «متخندوش» المزقة بالإشارات السريّة. ولكنه وجد نفسه يعبر الأرض المحروقة بنيران الشموس وحمم البراكين، وينزل إلى الناحية الأخرى. تفقَّد

(*) آزرنه. خلوة العاشق مع المعشوقة (حسب عادة الطوارق)

الإبل قبل أن يَشْرَع في تنفيذ الخلق. ذهب إلى المغارة المقدَّسة. كانت عالية الجدران، مخطوطة بالرموز أيضاً. بشرة الصلصال بلون اللحم، بلون الدم. بلون البشر. بشرتها تناسب اللون البشري. المغارة المقدَّسة استعارت لون بشرتها من لون البشر. إختار حجراً صلداً وبدأ العمل. صَقَلَ مساحة مناسبة من الجدار. ثم جاء بحجارة وصعد فوقها لينحت النقش من أعلى. ظلَّ يجرح البشرة الحجرية الدامية ويتلو التمائم الوثنية التي تعلَّمها من مخاطبات القبلي في أفواه الكهوف، واقتبسها من ثرثرات الجنّ في القمم والظلمات. استجابت الجلدة الحجرية للتمائم السريّة فاستسلمت لمداعبات الحجر. أَفْرَغَ الجسد الحجري الصَلْد من اللحم الميّت وهيَّأ مكاناً للحم البشري، للحم الإلهي الذي أوحت له الآلهة أن يبثّه في الجدار الصخري المقدَّس. تفضأ الحجر وتهيَّأ لإحتضان الجسد الخالد. فبعد عمل جنوني استمرَّ عدَّة أسابيع تبدَّت الملامح الأولية لمخلوق نافس البدر في بهائه، وأضاء الظلمات بنور وجهه، وبَهَر الصحراء بجماله، ووقعت قلوب الرعاة في أسره إلى الأبد. وحتى الجدار المقدس لم يُخْفِ سعادته بإحتواء جسد الربة، لأنه يعرف أنه سيزداد قداسة بهذا الإمتلاك، وسيفوز بامتياز جديد سيجعل منه معبداً خالداً في كل القارة الصحراوية.

وسوف لن ينسى «آكّا» إلى الأبد الطاعة والمرونة والاستجابة والترحيب الذي تلقاه من الحجر المقدس بمجرَّد أن بدأ في تنفيذ الوحي الإلهي. وقد سمع الحجر يقول له بهمس خفي أن الضياع كُتِب على كل شيء في الصحراء ما لم يحفر في الحجر. وقد فهم فيما بعد أن هذه وصية من الأسلاف لأنه وجد نصاً منقوشاً بـ«التيفيناغ» يعيد نفس الحكمة.

تحلّي الحجر بالتجاوب الحميم ساعد «آكّا» في تجسيم الربّة، وبدا أن المغارة تتهيَّأ لاحتواء الجسد المعشوق. ولم يشكّ أبداً أن روح الأسلاف تستنفر الآلهة وتستعطفها، لتعطي «تامدّورت» الحياة، وتبارك لها ميلاداً في الحجر.

(١٨)

بدأ المرحلة الثانية من وحيه السرّي:

ذهب وبحث عن دم التكوين. دم الأسلاف المسفوح في بطن الصحراء. تميمة الأرض الوحيدة التي تملك أنْ تُحيي وأنْ تُميت. تُحيي إذا لانت وتبدّت، وأقبلت. وتميت إذا احتجبت. إنها سرّ الحياة. سرّ الأرض. سرّ الصحراء الذي أودعته فيها الآلهة منذ الزمن الأول فلم يهتدِ إليه ويكشف عنه الغموض سوى الأسلاف. تيفتست. تيفتست. تيفتست. أين أنت؟ أين الدم المقدس الذي يجري في عروق الأرض؟ أين التربة المخضّبة بأنفاس الآلهة التي تحرسها روح الأسلاف؟ أين التعويذة التي تأخذ الأحياء إذا غابت وتعيد الأموات إذا أقبلت؟ فاخرجي يا «تيفتست» من مخبئك في الظلمات وساعدي في بعث الحياة في الكائن الإلهي الذي بَارَكَتِ الآلهةُ دخولَه إلى المِحْرَاب؟ تبدّي يا روح الأرض وانفخي في الصورة من روح دمك لأن الآلهة أَجْمَعَتْ أن تقبل الصورة وترفعها إلى مرتبة الأرباب. تبدّي. تبدّي. تبدّي.

في الوادي، عند حضيض الجبل، عثر في قبر قديم على كنز فريد من التراب المقدس.

(١٩)

في المرحلة الثالثة جاء إلى الخباء.

طاف حول البيت. ظلّ يحوم ثلاث ليال حول الخباء ويصيح مستعطفاً: «إكشفي عن وجهك يا «تانّس»، وأضيئي الصحراء كي أحلب النوق»(*).

ولكن تانس لم تخرج من مأواها في الأساطير. تانس لم تخرج لأنّها تحب الحياة وتخاف من العين.

(*) النّداء مستعار من أسطورة الطوارق الملحمية «تانّس».

في اليوم الثالث أشفق عليه القَرين من التوسلات، فقال لقرينته الفاتنة:

- إخرجي له ولو مرّة.

ولكن «تامدّورت» التي جرَّبت العين، وعرفت قدرة الخلق على امتصاص الدم بالنظر، وورثت عن أمّها المصير الفاجع الذي لَقَنْهُ جدَّتها بضربة شريرة من العين، أَبَتْ أن تخرج إلى العراء لتضيء للساحر العاشق الصحراء ليحلب النوق.

قالت:

- سيضرب رأسيَ الصداعُ. سيصيبني الوجع. سأحترق بالحمَّى. لقد جرَّبت فيما مضى. وقعت عينه على وجهي مرتين فصرعني في المرّتين.

سكت القرين وواصل الساحر شكواه الليلية. واصل البكاء كل ليلة. يدور حول الخباء ويردد: «إكشفي يا تانس عن وجهك، وأضيئي الصحراء كي أحلب النوق». ولكن تانس لم تخرج. لأنها تعلم أن الحياة تُعْطَى مرَّة واحدة، فإذا أخذتها العين إلى مكان آخر، فإنها لن تعود إلى نفس المكان أبداً.

توسَّل القرين:

- إخرجي له ولو مرّة واحدة.

فجاوبت بالوعيد.

- إذا خرجت فلن أعود. إذا خَرَجَتِ المرأة وكشفت وجهها للساحر الذي يتقن استعمال العين فإنها لن تعود.

استمرَّ المُدَلَّهُ يطوف حول الخباء. يردد التوسلات الفاجعة ويغنّي المواويل الحزينة. يرتِّل البكائيات القديمة ويغالب الحزن بأصوات يقلِّد فيها ثغاء الماعز. انفطر قلب القرين فتوسَّل المخلوقةَ المنيعةَ:

ـ إذا لم تخرجي للراعي فسوف يموت. إني أسمع الأشجان التي تسبق الموت.

فقالت المخلوقة المكابرة:

ـ إذا خرجت فلن أعود.

إجتهد القرين:

ـ كشفٌ خاطفٌ للوجه لن يصيبك بسوءٍ. لأنَّ المرأة في الصحراء لا بدَّ أن تخرج إلى الخلاء يوماً.

كَتَمَتِ المرأة الخفية غيظها على البَعْل. لم تقلْ له أنه باعها. لم تذكر له أنه تنازل عنها للراعي الشقي. الراعي الذي لا يعرف أحدٌ غَيْرَها ما يحمله في صدره من أسرار. لأن المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يعرف السرّ في توسّلات الرجال، وفي تبجيل الرجال. عرفت أنها إذا خرجت فسوف يفقدها إلى الأبد. عرفت أن الراعي الشقي سوف يأخذها بالعين، سيأخذها إلى الأبد، إذا خرجت إليه مرّة واحدة.

أخيراً خرجت.

وقفت في عراء الظلمات. وأنصتت لسكون الأزل في ليل الصحراء الخالدة، ورفعت عن وجهها الحجاب. إنبثق فيض الضوء الذي استعار نوره من الأقمار والشموس والكواكب، وانسكب على الصحراء الملفوفة في الظلمة. مزّق عنها اللحاف الأسود فتبدّى جسد الصحراء وتعرّى. زغردت الجنيّاتُ في القمم. وناحت الحوريات في الفراديس. ولكن الراعي لم يَهْرَع ليحلب النوق.

سجد على الأرض أمام القامة المعبودة. قبَّل الأرض ومرَّغ جبهته طويلاً في التراب.

خطف المخلوقة الإلهيّة، وطار بها إلى المغارة المقدسة. عجن دم الأرضِ، كنز الأسلاف، تعويذة الحياة، بروث الماعز وقطع الجلّ، وأضاف إلى الخليط حليب النوق. إعتلى الحجارة وبدأ شعائر الخلق. بدأ بالقمة، بالرأس، بالحاجبين، بالعينين، بالشفتين، بالوجنتين. ثم الأنف، والأطراف. وكان حريصاً أن ينطق بالكلمة الخفيَّة، ويلقّن الحجر السرّ. ردّد مع كل علامة حفرها في الجدار بالمخلوق الدموي: «تامدّورت. تامدّورت. تامدّورت»[*]. ولكن الوحي السماوي أخبره باللغة السرية أن الجهر بالاسم لا يكفي لاستدعاء المخلوق واستضافته على الحجر. هنا ردّد شعيرة أخرى: «تعالي. تعالي. تعالي». طَبَع بعض الملامح بدم التكوين السحري وواصل القراءة السرية: «اسكني الحَرَم. اسكني الحَرَم». تفقّد جسد الربّة بنظرة شاملة. في عينيه لَمَعَ الرضا والوجد وتعبير آخر مجهول.

واصل النقش مكرراً نفس التعاويذ الغامضة. رُسُلُ الأسلاف توسّطوا مع المغارة وعقدوا له محاورة مع الحجر. فهم أن الجدار لن يتقبّل العطية وينفخ فيها من روح الخلود ما لم يستمر في التفوّه بالسر. ما لم يواصل ترديد التميمة. ولم يكن يعرف تميمة أخرى غير «تامدّورت» لتجسيم الكائن وقبوله ضيفاً في حَرَمِ الآلهة. لم يكن يحفظ سرّاً آخر غير النداء العاشق «تعالي» يصلح لإستدعاء الربّة ولم يكن يتقن لفظة أخرى أقوى من الأمر الإلهي الذي لقنته له السماء وأودعته في شفتيه: «اسكني» ليغوي به ويستدرج للسكن في الحرم: «اسكني». فكان يردد الثالوث المقدس (تامدّورت، تعالي، اسكني) بلا توقف، ويغرس أصبعه في المزيج السري ويقيم في الحجر الحميم بَدَناً يستعيره من أرض الصحراء ليرفعه بالعشق وقوة الخلق إلى السماء.

واصل عمله المبدع، الممتع، العسير، ولَمْ يسترح إلاّ في اليوم السابع.

(*) تامدّورت: الحياة (بلغة تماهق).

(٢١)

قضى يوماً يتسكّع في الوديان المفروشة بالرمل والشجيرات البرية الظمأى. عاد إلى المخبأ وتفقّد المخاض في المغارة. حَبِلَ اللوح الحجري الجليل بالسر وحمل في أحشائه الجنين. استجاب للنداء وتقبّل البذرة في صلبه. ازدادت ملامح الوليد وضوحاً وتبدّت خطوط الوجه المدهش الذي يضيء الصحراء إذا تبدّى وخرج من الحجاب. في المقلتين وَمَضَ القبس الخلفي وتطلّع إلى الأفق البعيد. الأنف ارتفع وعاند وكابر. الشفتان ارتسمتا وابتسمتا بغنج لا يليق بربّة الحجارة، وكشفتا، في انفراجة الإغواء، عن أسنان تنافس النجوم وتقيم البرهان على إنتماء حواء إلى السماء. إعتلى الحجارة واقترب من البدن. رأى كيف يجري فيه البعث ويكتسب الحياة. لفحته الأنفاس الحارّة، وأحسَّ بدبيب الدماء في عروق الجسد. تحسّس الأطراف فوجدها حميمة، تنبض بالحرارة والجمال والحياة. وضع أذنه على القلب فسمع الوجيب الذي ينطق، في إيقاعه الرّتيب، بالعشق والحَمْدِ. ارتجف المبدع واحتضن المعشوقة فغاب في رحلة وجدية أطول وأجمل من رحلته الأولى التي أخذ فيها السرّ من الأسلاف. وعندما عاد إلى الصحراء ووجد نفسه في «تادرارت» سقط على وجهه وركع في سجدةٍ طويلة أمام المعبودة.

كان خالقاً سَجَدَ لمخلوقٍ ابتدعه واستحقَّ أن يُعبَدَ.

(٢٢)

قبل أن تتحالف السماء مع الصحراء في تادرارت وتسمح للساحر أن يبدع سرّه كانت «تامدّورت» في الخباء تحتضر. أصابها الشحوب بعد الخروج، وغاب الدم من البدن. بدأت تتقيَّأ وتئن وترتّل مفردات الوداع مع القرين طوال الليل. إحتضنته وناحت قائلة: «وداعاً يا ابن العمّة لأنك فقدتني وأنا لم أعد لك. قلت لك أن الأنثى إذا خرجت للكاهن الليلي لتنيرَ له الخلاء وقعت في الأسر ولن تعود إلى الوراء أبداً. وداعاً يا ابن العمّة، لأن القدر هو الذي شاء أن نفترق منذ خالفت الوصايا المقدّسة ورفضت أن أهرب

من البيت ليلة التسليم. عرفت أن شيئاً فاجعاً في طريقه إلى حياتي قبل أن تفزعني العجائز وتتنبأ لي بالمصير. فتلثّمْ جيداً واحذرْ العين. تجنّب الولائم فهي شرك الأعداء، حتى لا يدسّوا لك الأظافر ويقتلوك بـ«المخلب» الكريه. وداعاً».

شهقت، واختفى الدم من وجهها، ومن جسدها. شَحبت، وذَبُلت، وبردت. خرجت إلى الظلمات فناح «بوخا» وخرج يبحث عنها في الكهوف. وقبل أن يهتدي إلى المغارة السرية إعترضه رسول القَدَر.

(٢٣)

كان يرتدي أسمالاً رثّة. يتزمّل بلثام مرقّعٍ. يلفُّ جسمه النحيل بقفطان باهت سرقت أشعة الشمس بياضه. قال إنه مهاجر أقبل من«كانو» في طريقه إلى الحمادة البعيدة. أناخ جمله الهزيل تحت الطلحة وتلهّى بتحضير الشاي. اعتدل في جلسته. أحكم لثامه حول وجنتيه وعدّد أسباب اللعنة الثلاثة وهو يترنّح كالمصاب بوجد الغناء: «ترفض القرينة الهرب ليلة التسليم وتقبل عليك فتقبلها في الحَرَم؟ تخرج من الحجاب بدون سلاح وتريد ألاَّ يخرج لك الخال من عتمة الفجر؟ تأخذ القرينة من أهلها قبل مضي الإثني عشر شهراً وتستنكر أن يستعيدها منك القدر ليهبها للجنّ؟». قفز بوخا وسأل بلهفة العشاق: «هل وهبها القدر للجنِّ حقّاً؟». ترنّح المهاجر مرة أخرى قبل أن يجيب: «أين يذهب الصحراوي عندما يهجر شكوة الطين؟ هل يعود إلى الصحراء قبل أن يصبح جنّاً؟». ناح بوخا: «لقد بحثت عنها في الكهوف وسألت عنها الرعاة. لم أجدها في أي مكان، ولم يرها الرعاة». تمايل القدر المتنكّر في ثياب المهاجر وعلّق على النواح: «ومتى تبدّى الجنّ للصحراوي دون أن يصيبه الفزع المميت؟ إعلمْ أن الإنسي إذا رأى جنيّاً يموت». اعترض بوخا: «وهل يموت بالرؤية مَنْ يمتُّ بقرابة لأهل الخفاء؟». ابتسم القدر المتنكر في ثياب المهاجر، بغموض الأقدار وقال: «لقد نسيت. كل المخلوقات الصحراوية تمتُّ إلى بعضها بصلة قرابة».

في الصباح اختفى ككل المهاجرين العابرين. نهض بوخا في الفجر فلَمْ يجد له أي أثرٍ. لم يجد أثراً لموقد النار، ولا لشاي البارحة. كأنَّ اللقاء كان حلماً. أيقن بوخا أن المهاجر ما هو إلاَّ جنّي تنكَّر في ثياب عابر سبيل.

(٢٤)

يروي الرعاة كيف تخلَّى آكَّا عن الرعي، وتفرَّغ لمعشوقته الحجرية. يمكث في عمق المغارة، يداعبها ويمازحها ويسلّيها. وكثيراً ما سمعوا ضحكات آكّا مع تلك الجنيّة الخفية التي أكَّد البعض أنّهم شاهدوها مُعَلَّقة في الجدار الحجري مثل ربَّة حقيقية.

قيل أيضاً أنه أنجب منها ولداً وبنتاً. يتبديان في ثياب البشر، كما يروق لهما أن يتخفيّا في لباس الظلمات والخفاء أو يتنكَّرا في جلود الحيّات أو أجساد الحيوانات.

أجمع الرعاة أن الطفلين أشقى مخلوقين عرفتهما تادرارت في تاريخها الطويل.

موسكو
٢/٩/١٩٩١م

العهن المسموم

(١)

في هجوم الليلة الثانية سلّط عليه القدر، ذلك الخصم المجهول، مارداً من الجنّ.

تدفّق الأعداء في حلفهم الثّلاثي الذي قدّسته الأصول القديمة وأغاروا على «واو» للمرّة الثّانية تنفيذاً لخطّة جنونيّة لا تريد أن تدع لمحاربي «واو» أنْ يلتقطوا أنفاسهم بعد الفاجعة التي أسفر عنها الاشتباك الدموي في الليلة الأولى.

خلف التلال الذهبية الغربية انطفأت الشمس وتوارى قَبَس النهار وبدأت غلالة العتمة تتكاثف وتستر الأفق.

الوحوش أوّل فريق خرج من النفق، واندفع نحو أسوار الواحة التي لحقها الدّمار وأنهكها تخريب الليلة الأولى. ولم يكن صعباً على آخماد أن يلاحظ، في نسيج العتمة، خيالات بنات آوى وهي تتراكض جنباً إلى جنب، متجنّبة الإندفاع في طابور حتى لا تستيقظ فيها نزعة الغدر فتفتك ببعضها قبل أن تفتك بالعدوّ الأصلي.

ولم تكن تظاهرة الظلال الوحشية هي السبب الحقيقي الذي سحب الماء من جسم آخماد وجرّده من النداوة والدّم، ولكن هذا الصوت المتوعّد،

لوحشي، الفجيع، هو ما أثار فيه القشعريرة ففزّ من بدنه العرق. في غلالة العتمة، تحت ضوء النجوم، رأى ذيول الغبار، وأنصت فسمع أنيناً فاجعاً كمريض يحتضر:

- غ - غ - غ - غ - غ - غ . . .

استمرّت الغنغنة حتى اختلطت بصيحات المقاتلين وهم يحمّسون بعضهم ويحرّضون رفاقهم. التحم الخصمان. تحوّلت الغنغنة البشعة إلى غمغمة أبشع. قفزت الوحوش في رقاب المحاربين في نيّة للانتقام، فدافع الرجال عن أنفسهم بحدّ السيف.

تساقط الرجال.

تساقط الوحوش.

نزل إلى الساحة فوج جديد، مجهول، مهول، يتبدّى في الظلمة بقامات الجبابرة، ويتلاشى مثل غلالات البخار. يمتطي مركبات الرّيح، وينزل فجأة فتتبدّد العجاجة ويسكن السّهل. يتراطنون بلغة مبهمة لم يميّز أهل الصّحراء منها سوى الأصوات. بعضهم يزحف على الأرض بوضاعة الأقزام، ويتطاول فريق آخر في السماوات حتى يحجب نجوم الليل.

عرف الأهالي أن العدوّ قد دفع بجيش الجنّ إلى المعركة. وبرغم أن هذا الجيش الغامض لا يحمل سلاحاً كبقية الجيوش، إلاّ أنه أثار فَزَع المحاربين أكثر من جيش مسلّح. ذلك أنه مزوّد بسلاح قديم صنعته الأساطير إسمه: الخوف من أهالي الظلمات والخفاء، السكّان الأصليين للصّحراء.

آخماد أيضاً خاف، فخالف بذلك وصيّة الحكماء المزبورة في «آنهي» المفقود، وتقول إن هلاك الإنس بيد الجنّ لا يأتي إلاّ إذا استسلم المخلوق للخوف. ولكن بعض اللؤماء عقّبوا على الحكمة بالقول إن هذا لا ينطبق على الجنّ وحدهم وإنما يشمل كل عدوّ، وكأنّ هؤلاء اللؤماء يقولون إن «آنهي» لم يأتِ، هنا، بجديدٍ، مشكّكين، بذلك، في أحكام الكتاب الصحراوي

المقدّس! ولكن آخماد كان ميّالاً لتصديق المزبورة لأن نصّها مدعوم بتفصيل أغفله اللؤماء يضيف الأسود إلى جوار الجنّ. منطوق الوصيّة يقول: «إيّاكم والخوف إذا واجهتم الجنّ والأسود». ولو لم يجرّب المواجهة مع هذه الوحوش النبيلة لما توقّع الخسران، ولما آمن الآن، وهو يواجه مَرَدَة الخفاء، بأن الخوف بداية العدّ التّنازلي في طريق الهزيمة. وقد مرقت ذكرى المواجهة مع الأسد في اللحظة التي تلبّسته فيها القشعريرة وفزّ من بدنه العرق. تذكّر التحذير، وتذكر، أيضاً، ردّ المشككين. ولكنه عاد فاستدرك وهو يتذكّر منطوق الوصية حيث أضاف الكتاب الفقيد الأسود إلى الجنّ. ولم يكن ليصدّق أن الهلاك في الخوف لولا مروره بتجربة الأسد في إحدى الغزوات إلى الأدغال.

تلك لم تكن غزوة كباقي الغزوات، ولكنها أقرب إلى الرّحلة التّجارية. قايضوا بعض البضائع في «كانو» فأغار عليهم بعض الأشقياء في طريق العودة إلى الشمال. لم يكونوا قطّاع طرق محترفين، ولكنهم كانوا جماعة من قبائل زنجيّة مختلفة عزّزت المجاعة وحدتها وصنعت، تحت ضغط الحاجة، حلفاً يغير على القوافل لينهب قوت يومه.

في تلك الغارة سَلَبوا منهم ثلاثة جمال وحمولة من الغلال. طاردوهم عبر الصّحراء وتوغّلوا جنوباً. بعد مسيرة ثلاثة أيام وجدوا أنفسهم في عتمة موحشة من الأدغال، ولكن الأشقياء احتجبوا. توقفوا واستظلّوا بشجرة مهيبة أحاطت جذعها السّمين بعروق مثل ضفائر النساء. إنهمك الرجال في إشعال النّار وإعداد الشاي وابتعد هو عن الجماعة مسافة ليقضي حاجته. هنا، داخل شبكة من الأحراش الملفوفة ككتل من الثعابين، أعدّ له القدر اللقاء مع ملك الأدغال وسيّد الوحوش. وكانت هيئته الجليلة جديرة بهذا اللّقب حقاً: قامة هيفاء، بدن ضامر، رأس مرفوع، وعمامة كثيفة تلتف فوق الرأس. في عينيه يومض ذكاء، و. . ابتسامة مريرة، ساخرة. ابتسامة الحكماء الذين وقفوا على السرّ وعرفوا، بالتجربة، أن المسيرة ليست سوى لعبة قاسية طالما أن الحياة لا بدّ أن تنتهي إلى الباطل. ماتت يد آخماد على التكّة، وتبخّرت الحاجة إلى

الحاجة التي جاء إلى الأحرش خصيصاً ليقضيها. وفي لحظة استعاد كل ميراث أهل الصحراء المتعلّق بأخلاق هذا الحيوان الجليل، الجميل، والمخيف أيضاً. وأسوأ أنواع الخوف هو ذلك الذي يمتزج فيه الجلال والجمال. الجلال يعطيه العمق والغموض، والجمال يمنحه سلاح الإغواء ويمدّه بالقدرة على الاستدراج. استمرّت المواجهة لحظات. ظلّ الملك يحدجه بفضول دون أن يخفي السخرية في نظرته. بل إنه تمسّك بهذا التعبير المُبهم حتى عندما استدار ومشى بتباطؤ وكبرياء حتى حجبته شبكة الاحراش.

عاد آخماد إلى الموقع دون أن يصدّق أنه نجا. والفرح بالنجاة هو الذي جعله يرتكب ذلك الخطأ القاتل فيروي ما حدث للأقران الخبثاء. أعطاهم الفرصة ليشنّعوا عليه وينسجوا الأسطورة. قالوا: «هل تعرفون لماذا لم يقتل الأسد آخماد؟ لأنه وجده في موقف ذليل. رجل نبيل يتخلّص من الفضلات. مكتوب في «آنهي» أن الملك لا يتنازل لمنازلة الجبناء الذي يلوّثون سراويلهم بالعفن والفضلات خوفاً. ألَمْ تشوّه سراوالك بالعفونة يا آخماد؟ ها ـ ها ـ ها...». ولم تقفِ الفضيحة عند هذا الحدّ. فبلغ الأمر الشاعرة. وكان أن هَجَتْهُ بقصيدة شاعت في القبيلة، وحالفها الحظ في الموهبة فجاء الشعر أصيلاً إلى درجة أهّلته للانتشار بين القبائل المجاورة، وما لبث أن تجاوز حدود الصحراء الوسطى فبلغ جهات القارّة الأربع. ما أسرع ما تنتقل الفضائح في الصحراء! يُقال إن الرّيح هو مَنْ يتولّى نشر الفضائح في هذه القارّة. لم يحاول أن يقاوم الشائعة وآثر السكوت، لأنه يعلم أنه كان سيرتكب حماقة أكبر لو روى لهم الحقيقة وقال إنه لم يخف ولم يرتجف، ولكن لعنة الظمأ هي المسؤولة عن حالة الشلل. جفّ في حلقه الرّيق ، وتيبّست الرطوبة في الحلق وتبخّرت النداوة من اللسان والفم.

هيهات أن يفهم الأصحّاء لعنة علّقها في رقبته القدر قبل الميلاد.

(٢)

نزل جيش الخفاء على السّهل كالجراد. زحفوا نحو الأسوار بسكون الطيف. يرتدون أزياء باهتة. بعضهم تشبّه بأهل الصّحراء فلفّ رأسه بأقنعة القماش، في حين آثر البعض الآخر أن يداهم العدوّ بلا رؤوس إمعاناً في التخويف وبثّ الرعب في النفوس الجبانة. ويستطيع آخماد أن يقسم بـ«تانيت» وأضرحة الأولياء أنه شاهد نَفَراً من الجن يسيرون على رؤوسهم وأرجلهم معلّقة في الفضاء. عادوا فرفعوا أصواتهم بالهسيس. ثم حوّلوا الهَسْهسة إلى الغنغنة البغيضة فعاد ثوب الشوك يتلبّس جلده. ولم يعرف أحد لماذا قرروا الخروج من دنيا الخفاء والتبدّي للناس برغم قدرتهم الطبيعية عل الاختفاء. ولكن الحكماء في القبيلة أكّدوا دائماً أن أخلاقهم لا تسمح بالغدر، وإذا حدث وتورّطوا في لعبة مع أهل الصّحراء فإن النبل يقتضي إحترام قواعد اللعبة، والالتزام بشريعة العراك إلى النهاية.

توقفوا عن الغنغنة.
هيمن السكون.

وقف أمام آخماد مارد بلون الظلمة، يرتدي ثوباً قصيراً، مضحكاً، لا يستر حتى ركبتيه، كما لاحظ أن الثوب ينحسر عن المعصمين، كأنه استعاره من طفل، أو، بالأصح، استعاره من أحد الحلفاء من مقاتلي بني آوى. فزّ العرق من بدن آخماد. تراجع الرّيق من الفم. تراجع إلى الوراء خطوتين. نسي الظمأ في لحظة، كما نسي الخوف الموروث في نفس اللحظة أيضاً. ذلك أن هناك قواعد خفيّة، سريّة، لا يتحلّى بها إلاّ إنسي من الصحراء، وتقول إن المحارب لا يتحوّل إلى بطل، أو حتى إله، إلاّ عندما تبدأ المعركة. لأنه لا ينسى الموت إلاّ في اللحظة التي يواجه فيها الموت. ولا يعرف أحد عما إذا كانت هذه القاعدة مستعارة أيضاً من «آنهي» أم أنها قانون طبيعي صنعته الصّحراء تفسيراً لحركة الإنسان فوق الصحراء. الحكماء يطلقون على هذا القانون إسم: الشجاعة! وهي كلمة سرّية وسحرية. والبرهان على ذلك

أنها، مثل النوم، لا تجيء إلاّ عندما تيأس من مجيئها. بل وتنسى وجودها أيضاً. ومما زاد من مفعول كلمة السرِّ هو مواجهة الخصم له بيد عزلاء من السّلاح، إلاّ إذا حسبنا جلال الظلمات ورهبة الخفاء سلاحاً. ويبدو أن هذا السّلاح هو ما يطلق عليه «آنهي» بلغته القديمة، الغامضة؛ إسم: الخوف!

لم يجد آخماد، بعد ان استيقظ فيه كنز الشجاعة المغمور، صعوبة في أن يجزّ رأس الخصم بالسيف. خُيِّل له أنه رأى نافورة من الدّم تومض، تحت ضوء النجوم، ببريق خاطف، وشاهد، يقيناً، رأس الجنّي يتدحرج على التراب. تدحرج ثلاث مرات أو أربع ملفوفاً في قناع الكتّان، ولكن ضوء النجوم، ذلك الشّاهد السماوي الوحيد على هذا العمل البطولي، لم يكن كافياً كي يرى تعبير العينين الجنّيتين وهما تنفصلان عن المنكبين وتمضيان في رحلة العودة إلى التراب الذي خرجتا منه. ظنّ آخماد أن الأمر انتهى، والمعركة قد حُسِمت، ونسي في غمار الحماس أن خصمه لا بدَّ أن يملك مزايا أخرى مجهولة طالما اعترف لنفسه أنه ليس من دنيا الإنس. وكَمْ كانت دهشته كبيرة عندما سمع فوق رأسه ضحكة غريبة، ساخرة، وأسوأ من هذا كله، شرّيرة:

ـ هيء ـ هيء ـ هيء...

رفع رأسه إلى أعلى فرأى المارد ينمو، ويكبر، ويزداد تطاولاً في السماء. حاول أن يشاهد المنكبين العاريين من الرأس، ويقف على حيل أهل الخفاء. ولكن القامة تمادت في الامتداد، وقطعت مسافة طويلة في طريقها إلى السماوات العليا لحظتها...

ماذا حدث في تلك اللحظة؟

وجد نفسه يخرُّ راكعاً على ركبتيه. سقط السيف من يده وغاب نصله في الرمل. غالب الدّوار وشَرَع يتقيأ بصوت مقززٍ، عالٍ، لا يليق أبداً بالفرسان.

سمع الخصم يرفع عقيرته القبيحة بضحكة لئيمة، شامتة:

ـ هيء ـ هيء ـ هيء...

عَادَ له الصّفاء فأدرك ما حدث. تلقّى ضربة بين كتفيه. ضربة قاسية تستحق أن تُنْسَب إلى الجن. لم تكن ضربة من سيف أو هراوة، لأن سكان الظلمات لا يستعملون لا الحديد ولا المصنوعات.

ولكن أي سلاح يمكن أن يكون بهذه القساوة؟ أية أداة يمكن أن تسبّب هذا الألم؟ آه. حقاً إن اليد العارية أقسى من السيف. غِلُّ الخلق المبثوث في البدن، الممدود في الدّم، يفوق أي حقد آخر. ويبدو أن هذا يشمل الجن كما يشمل الإنس. يبدو أنّ قوانين الحقد واحدة. قوانين البدن واحدة في كلا المملكتين. ولو لم تكن هذه القوانين واحدة لما ركع الآن وتقيأ بالصوت القبيح، المخجل، الذي سيجلب له عاراً جديداً لو وصل أمره إلى أذن الشّاعرة.

تلقّى ضربة أقسى بين المنكبين. أفلتت من صدره آهة أليمة وأحس بمرارة في الفم. لم تتح له الغيبوبة فرصة كي يتأكّد مما إذا كان السبب في المرارة انبجاس الدّم، لأن الظلمة زحفت وحجبت الذاكرة بستار من النسيان. إنكفأ على وجهه وقبّل التراب. لم يقدر أن يقدِّر كَمْ من الوقت استغرقت القبلة، ولكنه سمع الضحكة المخنوقة، الساخرة، الشريرة، بمجرَّد أن عاد إلى الوعي:

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ـ هيء...

جرّه الجنّي الكافر طويلاً ـ فوق عراء منوّع في التضاريس: رملي تارة، ومغطّى بالحَصَى الشرس تارة أخرى، ومكسوّ بحجارة حزّازة تارات كثيرة. وخلال هذا السّحل لم يتوقف الخصم عن الهأهأة الشامتة، المكتومة، الشريرة. أكلت الحجارة الشرهة اللحم في الركبتين والرسغين وأحسّ ببدنه يشتعل وينسلخ كما تُسلَخ الشاة. تمزّقت ثيابه عن أطرافه ولم يبق من الزي الفضفاض سوى أسمال تستر الصدر والعجيزتين. عاد له الوعي ففتح عينيه.

تفقد العدوّ فرأى الجنّي الرهيب مخلوقاً منفوشاً، مربّعاً، مقطوع الرأس. أسبل جفنيه وحرّك شفتيه كي يقرأ سورة الفاتحة. أدهشه كيف نسي، طوال الاشتباك، أنْ يستعين بالقرآن. تذكّر أن الآيات هي السلاح الوحيد القادر على قهر الجان. بل إن طلّاب الكنوز من المغاربة والمرّاكشية لا ينتزعون ثروات الذّهب من أيدي أهل الخفاء إلاّ ببراعتهم في استعمال القرآن. ويُقال إن أفلح تعويذة في هذا الحال هي قراءة آية الكرسي معكوسة. ويجمع الفقهاء أيضاً، وحتى بعض العرّافين المجوسيين الذين لا يعترفون بالقرآن أصلاً، أن قراءة الآية معكوسة تقيّد أشرار الجان وتشلّ الثعابين والحيّات. ولكنه لم يحفظ آية الكرسي، كما لم يستطع أن ينطق بالفاتحة أيضاً. ويروى في أوساط الفقهاء وعلماء الدّين المتجولين أن الجن إذا تمكّن من مخلوق نسي كلام اللّه وفقد القدرة على النطق بالتعاويذ. إنه ينسى أنه إنسيّ، ويصبح شبحاً خفيًّا مثلهم. فهل تمكّنوا منه حقًّا؟ هل أصبح جنيًّا أيضاً؟ هل انتمى إلى أهل الظلمة والخفاء؟

ولكن.. ها هو الماء يغادر البدن. ها هي النداوة تتخلّى عنه، وتهرب من الحلق والفم واللسان والأوردة والعروق والأمعاء. ها هو غول الظمأ يستيقظ ويتسلّط. ها هو يقع في قبضة عدوّ أشرس من الجنّ ومن الجلد المسلوخ على الصخر الحزيز. ألا يعيده العطش إلى الصحراء ويبرهن على مصيره المرتبط بعشيرة البشر؟ هل في معشر الجن مَنْ يولد وقد لوى القدر على رقبته قصاصاً قاسياً كالعطش؟ لا. لا. العطش يخصُّ الإنس وحدهم. العجز من خصائص الإنسان وحده. لا يستطيع الجن أن يكون جنًّا إذا وقع مغلوباً من بخار يتحوّل إلى سائل غامض أطلق عليه العَجَزَة إسم: الماء!

لا. لا. العطش هو البرهان الوحيد الذي يجعل انتماءه إلى الإنس أكيداً. إنه إنسان. إنه آخماد الذي حمل سرّ العطش منذ الميلاد، ولم يتوقف، من الاستهلال، عن الصراخ حتى قطّرت العجائز في فمه الماء بخيط من عهن. إنه آخماد الذي يغلبه الظمأ بمجرد أن ينفعل بفعل أو بكلمة. إذا فرح عطش، وإذا اغتمّ عطش. فكيف يذوق طعم السعادة مَنْ ولد في الصحراء الكبرى بهذه الخاصيّة الجنونيّة؟

غمغم بذلّ:

ـ ماء! ما ـ ا ـ ا ـ ا ـ ء ـ ء ـ ء...

فأجابه المارد برأسه المقطوع:

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ـ هيء...

نسي آخماد الكبرياء. نسي مراسم النبلاء. نسي ما أجمع أهل الصحراء وأطلقوا عليه ذلك الإسم الجليل: العار! نسي شرائع الصحراء، لأن كل هذا الميراث الرهيب لا يساوي قطرة ماء. لا شيء يساوي قطرة الماء، لأن قطرة الماء تساوي الحياة. وهذه الفاجعة هي التي جعلته يكرر بلا وعي:

ـ قطرة ماء. ما ـ ا ـ ا ـ ا ـ ء ـ ء ـ ء.

ولكن المخلوق الذي جاء من الجحيم ردَّ عليه بقساوة لا تليق إلاّ بأهل الجحيم:

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ـ هيء...

القطرة. القطرة. دمعة اللّه. جوهرة السماء. شفافة مثل طيف. بلا لون مثل ملاك. ناعمة كابتسامة أمّ. شجيّة عند السقوط كأغاني الحنين. لها طعم لا يُدرَك بالفم. لها رائحة لا تُدرَك بالشمّ. لونها وطعمها ورائحتها أعجوبة مأخوذة من السرّ. من اللّه. ولذلك فهي مثله لا تُدرَك بالحاسيات. لا باللمس، ولا بالحس، ولا بالبصر، ولا بالشمّ، ولا بالتذوّق. القطرة أعجوبة لا تُعرَف بمزايا البدن. ولكنها، مثل اللّه، تعرف بقوانين البرزخ والإلهام. القطرة لغز الصحراء. أعجوبة الحياة. مثل اللّه. مثل اللّه. قطرة الماء سرّ الوجود الممنوح بيد من خفاء. فعبثاً يحاول مَنْ يريد أن يفهم سرّ الماء.

(٣)

عندما خلق اللّه المخلوق وبنى هيكل بدنه من التّراب أشفق عليه من

الحياة. رأى له، ببصيرته الإلهية، صراطاً طويلاً من الشقاء، حتى أنه ذرف دمعة شفقة عليه من المصير. دمعة الشفقة الربانيّة، السحرية، هي التي أصبحت تعويذة للصحراوي، وعزاء سرّياً إسمه: الماء!

(٤)

هتف في الغيبوبة:

- مَنْ أنت؟

كان المارد ينحني فوق رأسه. تمدّدت قامته القزمية وعادت إلى وضعها الأوّل. استعاد الرأس المقطوع، المغروس في الرّمال، وأحكم حوله قناع الكتّان. تهيّأ لآخماد أنّ محجر عينه اليمنى بدا فارغاً. حفرة عميقة، مستديرة، بشعة، أمّا العين اليسرى فتعمّد أن يسدل عليها طرف اللّثام.

وكما توقع آخماد في غيبوبة الألم والحرمان من الماء أجابه المارد بالهأهأة التقليدية:

- هيء - هيء - هيء - هيء..

حاول أن يستفزّه بسؤال ويقول: «ألا تتقن جواباً آخر؟ ألا تتقن عملاً آخر؟»، ولكن الجفاف أمات الأعضاء وشلّ اللسان وقيّد الإرادة. و... فجأة، سمع صوت السرّ، والحياة، و... اللّه. سمع ثرثرة الماء. تدفقت السيول في قمم تادرارت. لغة شلّال الماء وهو يحاور الحجارة. لحن الشفقة الإلهية في حبّة الدّمع. فتح عينيه بجهد بطولي. رأى ذيولاً من بخار تصعد إلى السماء. يا ربّ: هل هلّت رحمتك؟ هل تحقق المستحيل وجاءت المعجزة في قطرة الماء؟ هل تكرّر حدث تادرارت عندما نزل الملاك ودعاه لأن يركع ويقبّل الأرض؟ هل أتى «اوداد» بشلّالٍ هذه المرّة بدل زمزمية المرّة الماضية؟ هل تحدث المعجزة وتتكرر المعجزات؟

قفز إلى المكان حيث يتصاعد بخار الرحمة. دفع رأسه إلى أسفل منتظراً أن يغوص في السّلسبيل. ولكن... ماذا؟ غاص في ذرات ملساء، دقيقة، في نعومة التِّبر الملعون وجفافه أيضاً. شرب من الرّمل وطفق يسعل بيأس. فوق رأسه سمع هأهأة الشّماتة:

- هيء - هيء - هيء - هيء...

استمرّت الهأهأة طويلاً. طويلاً. ظلّت تستفزّه كفحيح الحيّة حتى غاب.

لا يعرف كم مضى على هذا الكابوس، ولكنه وجد جنّياً آخر بملامح بشرية يضع رأسه بين ذراعيه بحنان ويبتسم له بغموض. النجوم في السماء ابتسمت له أيضاً. أحسّ بالاطمئنان والدفء الإنساني. وكان هذا خطأ آخر يُضاف إلى أخطائه الناتجة عن الجهل بالجنّ وقدرة هذه المخلوقات الخفيّة على التحوّل. تناول المخلوق خيطاً من عهن وقطّر له في فمه ماء على الطريقة التي يتبعها أهل الصحراء لإنقاذ المحتضرين من العطش. التقط آخماد القطرة كما يلتقط الرّضيع ثدي الأم بعد جوع طويل. تذكّر أن العجوز أنقذته بطريقة مماثلة مستخدمة خيط العهن عند الميلاد. ولكن «المخلوق» تكلّم لأول مرة:

- هكذا أنقذت أمّك أمّي في قديم الزمان. هذا دَيْن أعيده إنتقاماً لأمّي!

كانت لهجته غريبة، ولكن آخماد لم يشك في نوايا منقذه. ظلّ يلتقط القطرات في نهم إلى أن أحسّ بخدر يزحف في بدنه مثل ثعبان. مثل سمّ ثعبان. لحظتها توقف الجنّي عن استعارة دور الإنس وانفجر في هأهأة منكرة أشرّ من كل الهأهآت السابقة:

- هيء - هيء - هيء - هيء..

الأم؟ الدَّيْن؟ الانتقام؟ ما معنى هذا الهذيان؟ آهٍ. إنه يهزأ. يذكر أن العجائز رددن دائماً رواية عن لعنة الظمأ التي ألحقها به القدر وهو ما يزال نطفة في الرّحم فقلن إن أمّه داست ابن جنيّة في رماد النجوع القديمة عندما كانت حاملاً به، فجاءتها الجنيّة في الليل وهددتها بالانتقام. ولكن لم يسمع قبل اليوم أن أمّه انتقمت من أمّ جنيّة بأي طريقة. أم ان المارد (أو القزم) يتهكّم ويلجأ إلى طريقة الحكماء في التّورِيَة والرّمز؟ نعم. نعم. لا شك أن الجنّي الشيطان يسخر ويهمز ويلمز و.. ها هو الخَدَرُ، خيط الانتقام، زعاف النسيان، يزحف في البدن، يسري في الجسم، يشلُّ الأطراف، يحجب الرؤية، يختم على الذاكرة بالنسيان. النسيان. النسيان.

اجتاز البرزخ الغامض، عَبَر إلى الضّفة الأخرى، وعرف، في ومضة صفاء، أنّه لن يعود من نفس الطريق أبداً. أبداً. أبداً.

موسكو
١٣/٤/١٩٩١م

الجدب

(١)

حملوا عليه لأنّه رَكَن إلى السّهل. إتّهموه بمخالفة وصايا الكُتاب المفقود عندما استقرّ بالأرض أكثر من أربعين يوماً. استحوا أن يواجهوه بالتّهمة فأوكلوا بالمهمّة للمعمّر «بكّة». استغلّوا تبجيله للحكماء والمعمّرين الذين لم يبق لهم في الدينا شيئاً سوى الإنصات للصمت والإعتصام بالسكون. كانوا يعرفون أنه سيستمع إلى الشيخ «بكّة» وسيقبل منه الإدانة حتى لو كانت تتعلّق بالاستسلام للأرض والرّكون إلى العبودية. ولم يخيِّب الشيخ الحكيم ظنّهم فرمى في وجهه بالتهمة في خباء الاجتماع وعاد ليعتصم بالسكون الخالد. قال كلمته ومضى من الصحراء إلى سكون الصحراء. رجمه بالتّهمة ولاذ بالحَرَم البعيد، بالبَرْزَخ المطل على الآخرة، لأنه يعرف أن الزعيم لن يلاحقه إلى هناك بالاستنكار، ولا بالاحتجاج، ولا بالمبارزة. لأن المعمَّر، في أخلاق الصحراء، في شريعة الصحراء، هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يرفع صوته في وجه الزعيم ويعترض على أحكامه دون أن يعرِّض يومه للقلق أو ليله للأرق. يستطيع أن يجاهر بالمعارضة والمخالفة والرأي ويعود إلى بيته ليتمتّع، في ظل العشيَّة، بشرب الشاي الأخضر ومشاهدة الأفق المغمرر بالسّراب والإنصات لصوت اللّه في السّكون الخالد.

تابع ملامحه وهو يتوارى. تابع الغياب في أخاديد الوجنتين وتجاعيد

الجبين. ولم يتوقف عن المتابعة حتى اختفى الشيخ من الاجتماع، ومن السهل ودخل الخلاء الفسيح، الممدود، المفضي، في مكان ما، إلى السّماء. ذهب «بكّه» وبقي الاحتجاج. خرج الحكيم وظلّ بينهم الوعاء القديم. وربما كان لهذا «الخروج» أثره فيما بعد عندما اضطرّ هو، الزعيم، أن يردّ على الإدانة فيحاوره الشيخ «باخي» نيابةً عن بكّة «الرّاحل». لم يشارك بكّة في الحوار التالي بكلمة، ولم يبدُ أن عزوفه عن المشاركة قد أثار دهشة أحد في الاجتماع. كأنّ إنسحابه الخفي واعتصامه بملكوت السّكون كان شرطاً مسبقاً لحضور المحاكمة. كأنّ مسؤوليته توقفت عند حدّ التجاسر بتعليق الجرس في رقبة القطّة ومن ثمّ الإنسحاب إلى الخلوات التي لا يكدّرها شيء، ولا يُسمع فيها إلاّ صوت اللّه. وهيهات أن يجرؤ على ملاحقته في هذا البرزخ مخلوق!

ولكن على الزعيم الحكيم أن يتوقّع اعتصام أمثال بكّة بتلابيب السّكون، ببرزخ اللامكان، بمجرّد أن يدلوا برأي الجماعة في سلوك الزّعامه، وربما، في أخلاق الزعيم نفسه. هذا حق الشيخوخة على القبيلة كلّها، قبل أن يكون حساباً للجماعة في حق الزعيم وحده.

فهل نطق بكة بالحق، واستحقّ هو، كزعيم ولوّه بأنفسهم زمام الأمر، الإدانة حقًّا؟ هل فرّط في البئر، ورهن، إهمالاً، حلمة الأرض بيد الأغراب، راهناً معها أعناقهم، صانعاً منهم عبيداً للأرض وللعد؟

التزم لغتهم في جوابه. حدّثهم بالوقائع وقدّم المبررات الأرضية. ولكنه تجنّب الدخول في المجاهل ولم يستعمل اللّغة السرّية. لم يفعل لا لمعرفته، أو خشيته، أنهم لن يفهموه كما يريد أن يُفهم، ولكن لأن ثمة أشياء خفية يجب على الرجل النّبيل، أو فلنقل الشجاع، أن يخاطب بها نفسه وحدها.

حدّثهم يومها عن الاعتدال والإمساك بالعصا من الوسط، وأخفى عنهم اللغة الخفيّة.

(٢)

يقيناً أنّه لم يكن المخلوق الوحيد الذي جرّب الجدب، ولكنه على يقين أيضاً أن الجدب هو الذي أجبره أن يتخلّى عن عقيدة التخلّي طوال سنوات، كان حدباً فريداً من الصحراء.

بدأ الحريق، ذلك العام، في الصحراء الجنوبيّة. جاء بخبره تجّار القوافل، ورووا قصصاً موجعة عن قساوته وضحاياه. في العام التالي زحف على الصحراء الوسطى، وشَرَع يهيمن على المراعي الممتدة من «مساك ملّت» و«مساك صطفت» شرقاً حتى تاسيلي ووادي «أميهرو» غرباً. ولم يكن بخل السماء بالماء وحده سبب الحريق، ولكن أنفاس القبلي، التي لم تتوقف طوال شهور، قتلت الحياة في الشجر والنباتات الكبيرة التي تتحمل العطش طويلاً وتتخذها المواشي مؤنة سنوات الجدب، ففقد الرّعاة الأمل. استدعاه زعيم القبيلة وأوكل له مهمّة إنقاذ قطعان الإبل. قال: «أعرف أن الأمل ضعيف في إنقاذ قطعان الماعز، ولكن أنت تعرف ما معنى أن تهلك الإبل. عودتنا أن تخرج لنا بحكمة كلما احتكمت إلى العقل، ونحن اليوم أحوج إلى الحكمة أكثر من يوم مضى عندما حكّمتك في تجنّب الحروب القبلية. هيا: أرنا مفاجأة أخرى من مفاجآت العقل، وأنقذ لنا القطيع». كاد يتجاسر ويقول: «قد ينفع العقل في إيجاد لغة مشتركة بين الخصوم، وقد يتحايل في تجنّب الصّدام بين القبائل، ولكن هل يستطيع العقل أن يتحدّى القدر؟ هل يجرؤ على منازعة القبلي ومواجهة إرادة السّماء؟». منعه الحياء، فخرج من خباء الزعيم وذهب ليطلب المعجزة في رحاب العقل.

اجتمع مع الرّعاة الحكماء، وتسقّط أخبار المطر، فأجمعوا أن الماء تراجع في السماوات في السنتين الأخيرتين في كل الصّحراء. اهتمّ بالصحراء الشمالية فقالوا إن الحمادة الحمراء احترقت أيضاً بالجدب.

لم ييأس.

إختلى براعٍ عجوز وساله: «أنت تعرف أن «آشك مقّرن»(*) يبقى أخضر لزمن يصل إلى العامين بعد السيل. ألَمْ تشتمُّ رائحة سحابة عابرة منذ عامين؟». تفحَّصه الراعي طويلاً، أدخل يده في جيبه وأخرج دقيق التبغ. استنشقه على دفعتين وسعل مرتين ثم ابتسم. همس كأنّه يكشف عن كنز: لا يُعدَم أنْ تعثر على «تِيرَهِيت»(**) في رملة زلّاف».

جمّع القطعان وقاد القافلة إلى زلّاف.

هناك لم يمكث أكثر من ثلاثة أشهر. إلتهمت الجمال الجائعة النبات الشحيح في الشهرين الأوّل والثاني، وعاشت على الاجترار الزمن الآخر. جلس آدّه تحت النخلة المعتزلة في البحر الرّملي الفاجع، واستشار العقل طويلاً. تذكّر حيل الصّحراء الشمالية، فهنّأ عقله وأمر الرعاة أن يتبعوه بالإبل.

(٣)

حِيَل الصّحراء الشمالية. إبداع حققته عبقرية الحمادة. مقاومة سرّية لقوى التخريب. استعطاف ذكي لرحمة السماء وليس تحدياً لإرادة القدر. فلكي تقيم التوازن الضروري لاستمرار معجزة الحياة لا بدَّ من التحايل على القبلي والجفاف والقحط. ولولا الموهبة الإبداعية، لولا العبقرية الخفيّة، لولا مساندة الإرادة السماوية، لما اجتازت المحن البريّة وحققت التحايل. فإذا هبَّ القبلي المكابر، ورأت في سلوكه المعاندة والثّبات والنيّة في الاستمرار والخلود، انحنت له راكعة حتى يتيقّن أنها، الحمادة، قد رضت بالتسليم عقيدة. فإذا تيقّن سكر بالرّضى والكبرياء والغرور. وإذا سكر بالرّضى والكبرياء والغرور تباطأ، وتبختر في مسيرته وتشبّه بنبلاء الصحراء المكابرين. عندها تنتهز الحمادة

(*) أشك مقَرن. اعشاب الصحراء التي تنبت عقب الأمطار الموسمية وتكبر حتى تنافس الشجر البرّي

(**) تيرَهيت: نبات صحراوي ينمو في الصحراء الموسطى (تماهق).

الفرصة وتنسلُ في طريقين متعاكسين: طريق يذهب للصلاة فوق الجبال الزرق واستعطاف السماوات. والطريق الثاني يمضي إلى الشمال حتى يصل جبل نفوسة: هناك تتشكّى وتتبكّى وتقيم مأتماً للبقعة المهدّدة بالفناء، طالبة النجدة. ترقُّ قلوب الآلهة، وتهبُّ لإنقاذ الفردوس الصحراوي. تجيء الإمدادات من الجانبين: من الجبل الأزرق في الجَنوب، ومن جبل نفوسة في أقصى الشمال. تأتي الرّحمة في إمدادات سرّية، غامضة، لا يكتشف أمرها إلّا الرعاة الحكماء وعشّاق الحمادة الحمراء، لأنها رفضت دائماً أن تبوح بالسرّ لمخلوق باستثناء هذين الفريقين.

وما أثار العشّاق والرّعاة دوماً هو هذه الطبيعة المفاجئة، والغامضة، والإعجازية، التي تُقبل بها رحمة الحمادة. يتربّع الرّاعي في أرض جدباء، يغنّي مواويل اليأس والجوع، بجوار موقد النّار، يغفل عن نفسه بمناجاة النجوم الغامضة، ولا يفيق من هذه الوجد إلّا على الفحيح الجليل. الفحيح المقدّس الذي تنطق به النّار عندما تتلامس، فجأة، مع لسان السيل. أين؟ متى؟ كيف؟ أين حدث العشق؟ أين عاشرت السماء قرينتها الأرض؟

متى حَدَثت المعجزة والصّهد يصهر جسد الصّحراء؟ الأرض محرومة من الماء حتى في فصل الشتاء فأي حكمة في هذا المَنِّ المفاجىء، القادم في زمان المحنة والحرمان واللاميعاد؟

وكيف استطاع السيل أن يمحو المكتوب ويخدع القدر؟ كيف استغفل لعنة الصحراء الأزليّة وجلب هذا الكمّ العظيم من الغَمْر السَّلسبيل؟

الفحيح الجليل. اللّغة المقدسّة. لغة التحاور لحظة لقاء النقيضين. إبهام هذه اللغة ليس في توجع قطعة الجمر وهي تنطفىء، ولكن في آهات الأرض نفسها. الأرض الرمضاء، الظمأى، التي انتظرت العطاء العجيب منذ زمن قد يمتد، في بعض الأمكنة، إلى مليون عام. وكم مرّة أنصت آدّه مدهوشاً لهذه التمتمة، اللهفة، لهذا التوجع المجهول. تبقبق الأرض في البدء، ثم

تكتسي بفقاعات كبيرة، تنفجر وتتلاشى في الحال، تتأوّه أرض الوادي، وتئن كإمرأة تعاني آلام المخاض، ثم... ثمَّ يصعد البخار. بخار الفرح والوجع. بخار الالتحام واللقاء. البخار الذي يبشِّر بفعل العشق، ويشير إلى الميلاد.

ولا أحد يعرف كم كلّف استجداء هذه السحابة، هذه المعجزة، الحمادة من بكاء ومرثيات وتوسّلات.

ولكن الرعاة يعرفون. والعشاق يعرفون.

(٤)

تفوز هذه البقعة بسيول مجهولة، وتبقى الأرض المجاورة، في الوادي القريب، جدباء، عارية، تحترق وتحتضر، تهلك فيها القطعان جوعاً، ويموت الرعاة عطشاً، في حين يفيض الوادي الآخر، المحظوظ، بكنز من الماء، ومن الكلأ، ومن التّرفاس. ومَنْ لا يعرف سرّ الصّحراء، مَنْ لا يعشق الصحراء، لن يقف على هذا التوزيع الخفي للمياه، ولن يفهم مفاجآت الحمادة، ولن يعرف أن هذا العمل العبقري هو جزء من تكوين هذا الفردوس الصحراوي العريق.

* * *

في الحمادة الفسيحة، المكشوفة، المجهولة، عمَّ الجفاف وهيمن السّراب. بحث عن آثار السّحب الوحيدة، المهاجرة، في الأوْدية الخفيّة، فلم يعثر إلاّ على بقايا شاحبة من «آشك مقّرن»، وأطلال بائسة لشجر الطّلح القادر على مقاومة العطش. ولكن الجدب الطويل الشامل استطاع أن يقهر الطّلح أيضاً ويحطِّم فيه الكبرياء.

لم يتوقف عن البحث، ولم يكف عن التنقّل. مضت شهور أخرى قبل أن تأكل الجمال الجوالق، وينكشف أمر الرّاعي الذي أكل نعله الجلدي.

في المرحلة الأولى قضت الجمال على أعواد الطّلْح المنصوبة في الخلاء كالأشباح. ثم تمادت وانحنت لتأكل الحطب اليابس. قال له أكبر الرعاة سناً:

«لم يبق إلاّ أن تأكل الحجارة». وضحك بعصبيّة وهو يحكم زمالته السوداء حول فمه الفارغ من الأسنان.

فهم الإشارة الخفيّة. الايماءة الفاجعة التي خبّأها الراعي العجوز في الجملة القاسية. ترجم لنفسه العبارة السريّة هكذا: «قريباً سيضطرّنا الجوع أن نأكل الحجارة».

في الليل تحدَّث نفس الرّاعي بإسهاب كيف فاجأ قريعاً يقتحم الخباء ويلوك غرارة منسوجة من الوبر. ضحك بعصبية مرة أخرى، ورفع طرف لثامة العلوي وأحكمه حول أنفه قبل أن يلقي بسؤال:

- هل رأيتم جملاً فحلاً يأكل وبراً؟ هل يعقل أن يبلغ الجوع بمخلوق حدًّا يجعله يبتلع وبره؟ يبتلع جلده؟

كانوا يتحلّقون حول النار. يعدّون فنجان الشاي المسائي. المجاعة ضربت شعائر الشاي الأخضر أيضاً. في البداية اختفى السّكر. آخر قالب قايضوه مقابل ثنيّ أصيل مع قافلة عائدة إلى غدامس. ظلوا يتفننون في استعماله ويقتصدون ويتحايلون إلى أن اختصروا الشعائر إلى دور واحد من الشاي بدل الأدوار الثلاثة التقليدية. وبرغم ما عاناه الرعاة من صداع بسبب اختصار الكميّة التي تعودوا تناولها يومياً، إلاّ أن آدّه رفض التنازل فلم يعتدل ويرضى برفع الأدوار إلى اثنين. وردّد رفاقه هذه الحادثة فيما بعد، واعتبروها المرّة الوحيدة التي زهد فيها آدّه في الاعتدال وأبى أن يمسك العصا من الوسط!

وبرغم الحيطة إلاّ أن القالب ذاب ولم يجدوا قافلة ترضى بمقايضتهم السكر حتى بجملين مقابل القالب الواحد. هنا ابتدع أحد الرّعاة الذين يعودون بأصلهم إلى تاسيلي، طريقة لا تليق إلاّ بسكان الكهوف والشقوق. أعدَّ لهم الشاي بعصير التّمر. وطبيعي أن آدّه رفض أن يتناول هذا المشروب المقزز، وفضّل أن يحتسي نصيبه من الشاي بدون سكّر.

في تلك الليلة تولّى نفس الراعي إعداد الشاي، وحرص أن يضع وعاء آخراً خاصاً بشاي آدّه.

تابع آدّه حركة الرّاعي العجوز وهو يكشف عن فمه الخالي من الأسنان ويرشف الشاي المخلوط بمريسة التمر. أحسَّ بالقلق. ليس قلقاً. ربما كان شفقة. بُنية الرَّاعي النحيلة، وبروزوجنتيه، أثارت فيه شفقة مبهمة. لا. لا. ليس هيكله العظمي هو ما أثار فيه ذلك الشعور الأليم، الغامض، في تلك الليلة، ولكن شيئاً آخر. شيء حزين استوحاه في لغته عندما تحدّث عن الجمل الذي أجبره الجوع أن يأكل جوال الوبر. نفس الايحاء الذي أحسَّه عندما إقترب منه الرّاعي في الخلاء وقال له: «لم يبق للجمال إلاّ أن تأكل الحجارة». وفي كل مرة يعقِّب على الجملة بضحكة متوترة.

والحق أن الجوع فعل بهم أسوأ مما فعله بالجمال. ولم يبق من المؤنة سوى بضع حفنات من التّمر، وزّعها بين عدّة أكياس قبل أيام وذهب إلى الروابي وأخفاها في الشقوق والحفر متعمِّداً أن تكون على مسافات متباعدة. هذا المحزون البائس هو رصيدهم لليوم الأسوأ. أرسل أحد الرعاة إلى طريق القوافل في محاولة لمقايضة الشعير بالجمال ولكن الرّاعي لم يعد. ويذكر النظرة الكئيبة التي حدجه بها الرّاعي العجوز عندما أخفى «الكنز» وعاد إلى الموقع. كانت نظرة عابرة، خاطفة، بدت بريئة، ولكنها ومضت ببريق فاجع، موجع.

ليلتها عقَّب راعي تاسيلي على تعليق العجوز:

ـ الإبل تمضغ الجوال ليس لأنه منسوج من وبر، وإنما لأنها اشتمَّت فيه رائحة الشعير.

نالت الملاحظة تأييد الجماعة. غضب الرّاعي. احمرَّت عيناه مثل قطعتين من الجمر، فزَّ زبد ناصع من شفتيه وتكلَّم بصوت حيواني:

ـ الإبل لا تأكل جلدها بدون سبب. هل فهمت؟ الإبل ترتكب الحماقة لأنّها جائعة. هل فهمت؟ جائعة. جائعة. جائعة.

قفز وفرَّ إلى الخلاء.

هيمن الصمت. لم يعلّق أحد. في الصباح جاءه معاونه وأخبره أنه تفقّد «الكنز» واكتشف اختفاء أحد أكياس التّمر.

(٥)

هل كان صعباً عليه أن يكتشف الفاعل؟ لا. ولكنه آثر ألّا يكشف عنه حتى لنفسه. أمر معاونه أن يترك الأمر سرّاً. وفي الليل تبادل نظرة عابرة، ولكنّها دالّة، مع العجوز. نكس الرّاعي رأسه حالاً، وهرب هو ببصره وحدَّق في النّار. قرر أن يدفن السرّ إلى الأبد لولا تدخّل القدر في نفس الليلة، بل في نفس اللحظة. إذْ سمع مساعده يقول:

ـ منذ أيّام ضبطت رجلاً متلبّساً..

اسْتُنْفِرَ الرعاة وحبسوا أنفاسهم، أنصتوا بكل حواسهم المتعطِّشة، دائماً، لسماع الفضائح واخبار العار.

أضاف المساعد:

ـ وجدت رجلاً وقوراً يتوِّج رأسه بعمامة وينحني ليأكل مداسه.

هتف أكثر من صوت:

ـ لا!

عاد الصمت الفاجع، الموجع، يهيمن. تعلَّقت الأبصار بلثام المعاون الخبيث. وكي يضفي هالة من الجلال والتشويق على الأسطورة أضاف ببرود لا يتقنه إلاَّ الدّهاة:

ـ نعم، شوى نعله الأيمن في النّار وأكله!

تدخَّل آدّه:

ـ وكيف تستطيع أن تثبت هذا العار؟

هنا فوجيء الجميع بالمساعد يضحك منحنياً إلى الوراء حتى لامس الأرض بطرف عمامته الخلفي. إعتدل في جلسته وقال بنفس البرود:

ـ هذا أبسط مما تتوقعون. أوكلوا لأحدكم مهمّة تفقد النعال غداً، وستجدون أن رجلاً وقوراً بيننا غلبته بطنه فأكل نعله الأيمن كما تؤكل قطعة لحم. ها ـ ها ـ ها...

(٦)

بعد أيام استضاف عابر سبيل. أخبر أنّه أقبل من غدامس في طريقه إلى زويلة. ذهب آدّه إلى الرّابية وعاد بكيس التّمر. قدّم حفنتين إلى ضيفه وتظاهر بالانشغال في إعداد الشاي حتّى لا يضطر لمنافسة الضيف طعامه البئيس. ويبدوأن عابر السبيل فطن إلى هذه الحيلة الصحراوية فمضى يلوك حبّات التمر ويبتسم بحزن.

في الصباح قال لآده عندما شيّعه في العراء إتماماً لشعائر الضيافة:

ـ تستطيع أن تتجه شمالاً بعد ثلاثة أسابيع باليوم والليلة. فإذا بلغت العرقوب الجبلي المشرف على «القريات» إنحرف يساراً لمسيرة ثلاثة أيام. هناك ستجد مفاجأة.

ابتسم آدّه فأضاف الضيف:

ـ ستجد كنزاً!

قال آده مداعباً:

ـ ومَنْ قال لك أني أريد كنزاً؟ أنا لا أريد سوى الماء. كنزي هو الماء.

قال الضيف بغموض:

ـ ومَنْ أخبرك أنك لن تجد هناك الماء؟

إبتسم آده مرة أخرى وسأل بخشونة:

ـ هل أنت عرّاف؟

فأجاب العابر بنفس اللغة الخفيّة:

ـ هل ستنحر جملاً إذا خسرت الرّهان وعرفت أنّي عرّاف؟

قال آدّه بيأس:

ـ ظننت أني أعرف حيل الصّحراء. حاولت أن أجد مخابىء المياه التي خصّت بها السماء الوديان المهجورة، ولكنّ الحظ لم يحالفني إلّا مرة واحدة هذا العام.

تكلّم العابر بحماس:

ـ مغرور حقاً مَنْ ظنّ أنه يعرف الصّحراء. إنها سرّ كبير مثل المرأة.

ردّد آده بلا إرادة:

ـ سر كبير مثل المرأة. أكثر غموضاً من المرأة.

انتصب بينهما الصمت. تلهّى آدّه بدحرجة حجارة الطريق. استوقفه الضيف فجأة. حدّق في عينيه كأنّه يقرأ في مقلتيهما سراً وقال بحماس:

ـ هل ظننت أني أجهل أنّك أطعمتني آخر حبّة تمر في الحمادة كلّها؟

ارتبك آدّه ولم يجد أين يهرب بعينيه. استنجد باللّثام وأنزل طرفه العلوي على عينيه. واصل الضيف بنفس الحماس:

ـ هل ظننت أني لا أعرف ماذا يمكن أن تساوي حفنة كاملة من التّمر في صحراء زمن القحط؟ هل أردت أن تسيء بي الظّن؟

قال آدّه بخجل:

ـ لم أفعل إلّا أصغر واجب نحو عابر السبيل.

ـ لقد قيدتني بسلسلة طولها سبعون ذراعاً. وإذا أنكرت القيد فإني أنكرت النّبل والعرفان بالجميل، سأحتقر نفسي إلى الأبد إذا لم يعذّبني ضميري بسبب هذا الكرم.

تعلّق الضيف بيديه. ضغطهما بين يديه بإنفعال فقال آدّه بهدوء:

ـ لا أظنُّ أن الأمر يستحق هذا الاهتمام. تستطيع أن تنسى أنّك عبرت الحمادة هذا العام فتتحرر، بذلك، من السلسلة.

ضحك الرّجل ضحكة خاوية وخاطبه ساخراً:

ـ هل أنسى أن رجلاً قدّم لي زاده كلّه في الوقت الذي يأكل فيه رجاله

نعالهم جوعاً؟ هل أنسى الرّجل الذي وضع، بهذا العمل، الوهق في رقبتي، وامتلكني إلى الأبد؟

انتفض آدّه. تراجع إلى الوراء خطوة. فزّ منه العرق، ولكنه لم يتكلّم. قرأ الضيف سؤاله في عينيه فتطوّع للجواب:

ـ تريد أن تعرف كيف عرفت أمر النعل. إعْلم أن لا شيء يخفى في الصحراء. ولا يجب أن يدهشك أن تعرف أن الرّاعي العجوز هو الذي أخبرني.

ردّد آدّه بلا وعي:

ـ الرّاعي العجوز؟

ـ نعم. نعم. وقال أيضاً أن لا معنى للعار بالنسبة لرجل عجوز مثله يضع رِجْلاً في الحمادة وأخرى في فم القبر. قال إن العجوز يستطيع أن يفعل ذلك لأنه لا يطمع في الفوز بصبيَّة، ولا يأبه لقصائد الهجاء، فلماذا تستنكرون عليه أن يمدَّ يده إلى كيس التّمر المطمور عند الرابية أو يشوي نعله الأيمن في العراء بعيداً عن أعين بقية الرّعاة. أعترف لك أنه كان ظريفاً وحكيـ، وقد ظلَّ يثرثر فوق رأسي طوال الليل ويروي أساطير شيقة عن نقائض الصحراء في الجدب والسيل والموت والحياة. أنا مدين له لأنه نبّهني إلى حفنة التّمر، وعليّ الآن أن أردَّ الدَّين قبل أن تمتلكني إلى الأبد.

لوّح آدّه بيده في الهواء إحتجاجاً، أراد أن ينهي الحوار فقال:

ـ لا أحد يملك أحداً بحفنة تمرٍ فكفّ عن السّخرية. تستطيع أن تكون على يقين من أننا لم نلتقِ في الحمادة عام الجدب.

ولكن الضيف إعترض بإلحاح:

ـ عِدْني أنّك ستنفِّذ وصيتي وتذهب إلى غرب القريات. عِدْني حتى أقدر أن أنام هذه الليلة وأنا على يقين من أن حبلاً طوله سبعون ذراعاً لا يلتف حول رقبتي كثعبان الأدغال. عِدْني..

كان في توسلاته طفولة. طفولة أثارت في آدّه شفقة غامضة. ولم يكف عن ملاحقته والتعلّق بيديه حتى عاهده آدّه بأنه سينفِّذ الوصيّة.

(٧)

هَرَعَ إليه المساعد عند الضُّحى. أدركه في وادٍ، خلف الرّابية الشرقية، وهو ينهمك في تخليص بدن المهري من القُراد الخبيث. وقف في مواجهته لاهثاً. مضت لحظات قبل أن يلتقط أنفاسه وينطق بكلمة واحدة ذات معنى:

ـ العجوز...

تبادلا نظرة قرأ فيها آدّه وسواساً مجهولاً ظلَّ يهمس له طوال الليل. وسواس ابتدأ مع الاعتداء على مطمور التّمر، وتمادى بعد الحوار مع عابر السبيل في شأن النَّعل الجلدي المأكول!

تحرّك آدّه خلف المساعد نحو الوديان الغربية. لم يستطع الوقار أن يجبر المساعد على ضبط النّفس فهرول في مشيته، وتلاحقت أنفاسه. ومسح العرق عن جبينه عدّة مرات. وعندما أطلَّ على الوادي توقّف وانتظر وصول آدّه كأنّه يخشى النزول وحيداً إلى المكان.

أشار المرافق بسبابته، ولكن آدّه نزل المنحدر ومضى، وقد انتقلت إليه عدوى الهرولة، إلى الطّلحة المتوَّجة بفروة ميتة من الشوك. تحت الطّلحة تمدّد العجوز على قفاه. مقلتاه كبيرتان، صافيتان، اكتسحهما بياض شامل، تحدُّقان في السماء، في الشمس، في الفراغ، بغموض وكبرياء. في الحدقتين ظلٌّ خفي من سؤال معلّق. حوله تناثر الدّم في برك صغيرة، وبقع كبيرة امتصّت البقعة الرملية الظمأى نداوتها، فتيبّست وشحبت وتشبّه لونها بلون الأرض الرمليّة. ولكن البرك الصغيرة المحاطة بالبدن احتفظت بنضارتها وبكارتها وظلّت قانية، متخثّرة تعلوها طبقة رجراجة، قاسية، مخاطية، ظلّت تلمع تحت شمس الضّحى. اليد اليمنى مفصولة عن الجسد حتى الرّسغ. ملقاة بإهمال بجوار الجثمان كأنها قطعة حطب. برز في طرفها المنتزع عرق أبيض مثل النخاع، في

حين غطّت حبيبات الرّمل الطرف السفلي، حيث نزّت آخر قطرات الدّم قبل أن تتوقف وتيبّس وتهرع لامتصاصها حبيبات الرّمل الظامئة. أمّا الرّسغ نفسه فبقي مختفياً تحت الكُمّ الفضفاض. والكمّ اللزج آثر أن يحتمي بالبدن، ويتحد بطرف الثوب الملاصق للرمال الشّرهة. الرِّجل اليمنى أيضاً لم تنجُ من العُدوان. تعرّضت للقطع عند الرّكبة، ولكن الشجاعة، أو نبض الحياة، لم يتحْ للعجوز أن ينهي عمله الوحشي. استطاع أن يبتر الجزء الأكبر ويفصله عن الأصل، ولكن بقيت بعض العروق وجزء من العظم متشبثاً بالفخذ، متمسّكاً بالأصل، بالمنبت، بالحياة.

ويبدو أن هذا العمل أنهكه واستنفد قواه فغلبته الغيبوبة قبل أن ينهيه. السروال مُشمّر حتى الفخذ، مغمور بالدّماء، كما تناثرت قطع صغيرة كأعواد الحطب، من العظام، بجوار الركبة المنزوعة. الرِّجل اليمنى حافية، في حين حرص المنتحر على أن يترك الرِّجل اليسرى مربوطة بالفردة الأخرى من نعل الجلد.

بجوار الرِّجل الأخرى، السّالمة، تناثرت عدّة العمل: مِدْيَة تباوية شرسة، مطواة خاصّة بتهشيم الحطب، ولوح صغير من حجر.

في الوادي أقبل الذباب، وبدأ يطنُّ كأنه ينوح.

(٨)

وكلّما جاءت سيرة الجدب، وجاء الرّعاة والرحّل وعابرو السبيل بأخباره وأفعاله تذكَّر اليد المبتورة، الملقاة على الأرض كعود من حطب، والسّاق المشوّهة، المتشبّثة، بواسطة عروق بائسة، بالفخذ، ورأى الأُلَق الخفي المتلامع فوق برك الدّم، وسمع نواح الذّباب.

اليد والسّاق والأُلَقُ والنَّواح غول بأربعة رؤوس دفعه إلى السّهل فرابط بقبيلته على بئر «حَلَمة الأرض» عندما انتشرت أخبار الجدب في الصّحراء

الكبرى. وعندما جاءه الشيوخ وتقدّم «بكّة» ورجمه بالذل والرّكون إلى الأرض أكثر من أربعين يوماً انتفض وهو يبتعد ويتحدث عن مبرّرات السكون والاستقرار دون أن يأتي على ذكر الجدب واليد المبتورة، الملقاة كقطعة حطب، والسّاق المشوّهة، المتشبّثة بالجذر، والأُلَقِ الخفي المتلامع فوق بركة الدّم، وطنين الذباب الذي يشبه النّواح. انتفض وكتم سرّ الألق والنّواح والنظرة الفارعة، الفاجعة، المرفوعة إلى السّماء.

موسكو
١٨/٤/١٩٩١م

الزعيم يتأمل الجمجمة

إعتلى الرابية وراقب شعائر الغروب. حدَّق في الأشعة النحاسية المطفأة فقال للشمس أن الأشياء المكابرة لا بدَّ أن تنكسر، وإذا كانت الشمس نفسها تسجد يوميًا وتستشهد فكيف يطمع الإنسان المعاند في الخلود؟ كان السّهل يفيض بالحياة، ولكنه، اليوم، جزء من الفراغ والصّحراء والعدم. كانت القبيلة تسعى في الأرض كذرِّ النّمل، وها هي، الآن، تصبح من نصيب الفناء. فكيف لا يشجعه هذا الباطل على العودة إلى عقيدة التخلّي. لو رفض النزول عند إجماع الشيوخ لتقبُّلِ الزعامة وبقي في الصّحراء متنقلاً كالطيف، كالسراب، لما اغتمّ الآن، وجلس مهموماً يقبض الريح كما يقبض العرّاف الشقي على جمجمة الأميرة الزائلة. التنازل عن التخلّي، والعودة عن احتراف العبور، هو الخطوة الأولى في الزّلل. وصراط الضلال والخطأ يبدأ، دائماً، بخدعة صغيرة. بزلّة صغيرة. والزلل بدأ عندما تنازل ورضي بالرجوع إلى نجوع القبيلة. ولو اختار الرحيل ومضى في طريق التخلّي لما خسرت القبيلة زعيماً كبيراً، بل ربما كسبت زعيماً يفوقه كفاءة وحكمة وصبراً، ولما خسر هو نفسه. وقد تعلَّم أن الخسارة تبدأ بالتعلُّق ثم تنتهي إلى التعدّد والعشق. وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ قام الخطر، وانقفلت السلسلة ذات السبعين ذراعاً، ووجد المخلوق نفسه داخل الشرك. المعتقل، قضبان الحبس. وهو يمتلك مزيّة خفية تجعل الدخول إليه ليس كالخروج منه. الدخول، دائماً، أيسر من الخروج. ويبدو أن هذه المزيّة هي خاصية تميّز كل الأشياء التي تستدرج إلى

القيد وتشدّ إلى الأرض. الأرض أقوى وأكثر كفاءة في الاستيلاء على الكائن. لأن دورها أكبر في خلق الحياة. السماء تعطي الإشارة. تبذر العلامة، والأرض هي التي تتولّى الخلق. وعلى عاتقها يقع وزر الولادة. مثل الذكر والأنثى، الرجل والمرأة. والرِّباط الذي يشدُّ المخلوق إلى الأنثى - الأم أقوى نتيجة لذلك. ولذا فإن الأرض تتفنن في تقديم مغريات البقاء، والاسترخاء، والاستقرار، حتى إذا طاب للرَّاحل المقام وجد نفسه مكبَّلاً بالأغلال، عاجزاً عن كسر القيد، مشدوداً إلى التّراب بالسلسلة ذات السبعين ذراعاً. وهيهات، آنذاك، أن يحلم بالتخلّي، أو يحقق العبور. لن يبقى له إلَّا أن يزحف على الرمل كالعبيد، كفلاحي الواحات، كبقية الزواحف والهوام والحشرات، إلى أن يقف فوق رأسه الفناء ويأمره بالعودة إلى الأصل، إلى رحم الظلمات، إلى التراب. يدخل إلى الأرض من الباب الذي تستقبله فيه الديدان لتجرِّده من ملامحه البشرية وتترك الجمجمة عارية، موحشة، بشعة. لقد ظلَّ يسأل نفسه، منذ شاهد الجمجمة في يد العرّاف: ما الذي استفزّه في هذا المشهد، هل هو بياض العظم الذي يذكِّر بالكفن؟ هل هو الشهادة على جلال الموت وباطل المخلوق الإنساني؟ هل هو البرهان على أن الزوال هو الخالد وكل ما يحدث فوق الصحراء هو زوال وخيال وفناء؟

للبياض جلال خاص. ولا يعرف لماذا يتخذه أهل الصّحراء شعاراً مقدّساً. فما أن يولد الوليد حتّى يُحشَر داخل قماط ناصع، وعندما يموت يُحشر داخل قماط ناصع أيضاً. والرحلة الممتدة بين قماط الميلاد وقماط الموت يقضيها الصحراوي محشوراً في قطعة فضفاضة من القماش الأبيض الحزين التي تذكِّره دائماً بالكفن. وربما رجعت عبادة الصحراوي للبياض لهذا السبب.

البياض هو لون الحداد في الصحراء.

البياض هو لون الأطياف والأموات في الصّحراء.

وقد أجمع الذين تعاملوا مع الأرواح وكل مَنْ ابتُلي بالأطياف وزيارات الموتى، أن سكان الخفاء يفضِّلون ارتداء اللباس الأبيض، في حين أجمع

الفريق الذي تعامل مع الجنّ أن اللون الأسود هو ثوبهم المفضّل. والجمجمة مهيبة بلونها الأبيض، الباهت، البكر، ليس لأنها توحي برحلة الباطل الممتدة بين قماط المهد وقماط الفناء، ولكن لأن بياضها شعار ينطق بالتحوّل والحساب. الجمجمة لم تسطع بالبياض، ولم تكتسب البكارة، إلَّا بعد أن عبرت إلى الظلمات وعاشت في الأرض، وعانت القصاص والجحيم. الجمجمة اختنقت بالضيق، وتنفست التراب، وذاقت شراسة ذرات الرّمل، وعانت شراهة الديدان. الجمجمة برهان البكارة لأنها لم تخرج إلَّا بعد أن دفعت الكفّارة وتقلّبت في أحشاء الهاوية. هذه الهاوية الموحشة، الخفيّة، الفاجعة، هي التي يراها في الفم الفاغر، المفتوح ببلاهة، وربما بشراهة، كأنها تخبر الأحياء بوصية مبهمة جاءت بها من الأموات. وصية المجهول التي لا تستطيع لغة البشر إلَّا أن تحس بها دون أن تتمكّن من النطق بها. نفس الوصيّة الغامضة التي سمعها من صديقه القديم الذي يسكن وحيداً في تاسيلي. قال له أنَ القدر سلَّط عليه رجلاً دنيئاً من الجن. كان يأتيه في الليل ويرجمه بالحجارة، أو يدلق على رأسه الماء، أو يهيل عليه التراب وهو نائم. في الأيام الأولى حاول أن يرهبه بالقرآن، فواجهه بالآيات الصغيرة المليئة بالأخطاء التي حفظها عن فقيه متجوّل، ولكن الآيات لم ترهبْ الجنّي، وربما كان لأخطاء النطق دوراً في إبطال مفعولها السحري. هذا الفشل شجّع الجنّي أن يضاعف عدوانه، فاتخذ من الهراوة سلاحاً يهاجمه به فيصحو في الصباح وجسده مكسوّ بالكدمات. هنا حاول الرجل أن يقنع خصمه بالتي هي أحسن، فحاوره طويلاً، وحدّثه عن الخير والشرّ والمصير الذي ينقلب إليه الأشرار. أجابه الجنّي بقهقهة زلزلت جبال تاسيلي وترددت طويلاً في القمم، ثم أمطره بوابل من الحجارة.

فكَّر الرّجل في مصابه وتصيَّد السحرة والعرافين في طرق القوافل، ولكن السَحَرة والعرَّافين وعابري السبيل تآمروا مع الجنّي وسلكوا طرقاً أخرى لا تمر عبر تاسيلي. أو ربما تدخَّل الجنّي اللعين نفسه ومنعهم من المرور. يئس الرّجل

وهجع في كهف موسوم برموز الأسلاف وتصاويرهم. التصاوير والرسوم هي التي أوحت له بالتميمة. نزل من الجبل ولجأ إلى السَّفح حيث تنتشر مقابر الأوَّلين. توسَّد «إدبني»(*) ونام حتى الصباح. استيقظ بعد الشروق فعرف أنه نام بعمق لم يعرفه منذ ابتُلي بالجني الشرّير. استمرَّ يحتمي بعظام الأجداد كل ليلة إلى أن نسي مطاردة أهل الخفاء وسافر إلى الشرق وراء الجمال. هناك زاره خصمه القديم في أول ليلة يقضيها بعيداً عن القبر وكاد يبطش به. في الصباح ترك الجمال وعاد إلى «إدبني» وجلس فوقه وشرع يضمِّد جراحه ويعالج الكدمات. قضى ليلته هناك فاختفى العدوّ.

أدرك أنه أصبح سجيناً للقبر طالما وأهل الخفاء قرروا أن ينتقموا منه إذا اختلوا به دونَ أن يعرف السبب. والحصن الوحيد هو مثوى الأسلاف. ولكن المصيبة أن الصحراوي مخلوق متنقل، ولا يستطيع أن يربط نفسه بكوم من الحجارة ويتخذه ملاذاً إلَّا إذا قرر أن يموت. هنا اهتدى إلى حيلة. حفر القبر وأخرج الجمجمة الشاحبة ودسَّها في جرابه. نزل بها إلى السَّهل وتوسَّدها هناك ونام ليلة هادئة أيضاً. لم يرَ للجنيّ وجهاً في تلك الليلة، فاضطرّ أن يحملها أينما ذهب، ويتخذها تعويذة في أسفاره منذ ذلك اليوم.

فتح صديقه الجراب مرَّة وأخرج له الجمجمة. تفحَّصها فرأى أنها أكثر جلالاً وجمالاً من كل الجماجم التي رآها. كانت مطفأة. شاحبة بلونَ التراب، بلون حبَّات الرّمل، أكلت الأرض أجزاء من قمتها، لحستِ الدماغ وطرفاً من الفك الأيسر. ولكن يستطيع أن يعترف أن القطع التي فقدتها، من طول إحتواء الأرض لها، ضاعفت هيبتها وجعلتها، ككل الأشياء القديمة والحكيمة، أكثر جلالاً وجمالاً.

موسكو
٢٦/٤/١٩٩١م

(*) إدبني قبور الأسلاف القديمة.

ايدكران في ضيافة بني آوي

استقبله زعيم «بني آوى» في كوخ مشيَّدٍ من القشّ. شيخ ممتلىء البدن. يميل إلى الطول. أنفه مُفلطح، وشفتاه أيضاً. يعصب رأسه بخيط من جلد ابن آوى مطرَّز بحبّات الخرز. حول معصمه الأيمن أيضاً سوار من جلد ـ قيل له أنه لابن آوى أيضاً ـ موشَّى بحبيبات الخرز. أمّا القلّادة المهيبة التي تتدلّى من رقبته فهي من قطع الودع. يمسك بحربة طويلة قيل لايدكران أن رأسها مسموم، يتخذها الزعيم بمثابة صولجان.

حول الزعيم تحلّق رؤساء العشائر وقادة الجيش. يفترشون مفارش ضُفرت من أعواد القش. حيّاه بإيماءة من رأسه ثم ابتسم. أشار له أن يجلس في مواجهته فتنحّى أحد الحاضرين وأفسح له المكان. هزَّ صولجانه المسموم في الهواء ثلاث مرات ثم شمَّر عن ساعده الأيمن ثوبه الأبيض الفضفاض وخاطب الجَمْعَ:

ـ ليس عاراً أن نستثمر طباع السِّباع. يُقال في أساطير الأسلاف أن هذا الحيوان النبيل لا ينازل إلّا الشجعان. هل تعرفون لماذا؟ هل تظنّون أنه يفعل ذلك من باب النّبل وحده؟

حَدَج ايدكران وانفرجت شفتاه المفلطحتان عن ابتسامة وديّة، ثم واصل خطابه للجماعة:

ـ لا تظنّوا أيضاً أنه يفعل ذلك من باب الكبرياء. إنه وصل إلى هذه القناعة من عقيدة حكيمة تقول إن على المخلوق ألّا يتنازل لمهاجمة عدوّ إلّا إذا

رأى فيه خطراً عليه.

التفت إلى ايدكران وسأل:

ـ ما رأي عرّاف تينبكتو؟ هل يتحلّى السّبع بهذه الأخلاق في تينبكتو أيضاً؟

ولكنه لم ينتظر جواب ايدكران. واصل الخطاب:

ـ نحن أيضاً استعرنا هذا الطبع اللئيم في علاقتنا بـ«متي ـ متي»(*). ولو لم نتسلّح بهذا الشعار لأبادتنا النّار من زمن. إنهم نار الصّحراء. ألا يعرف عرّاف تينبكتو أننا نسميهم ناراً؟

انفرجت أسنانه الناصعة عن ضحكة قصيرة وأضاف:

ـ إنهم أسوأ من النار، أسوأ من الشمس، ومن الظمأ، ومن الصحراء. متي ـ متي هم صحراء القارة.

لوّح بحربته في الهواء، ثلاث مرات أخرى. تجوّل ببصره بين الحاضرين. ظلّوا يراقبونه بعيون حمراء. عيون لا تنطق بالفضول ولا بالوقار ولا بأي تعبير غير الاحمرار. قال الزعيم:

ـ ولكن أعترف أنهم نبلاء أيضاً. على المحارب الشجاع أن يعترف بخصال العدوّ مهما كانت قاسية. وليس أقسى على محارب من أن يعترف لعدوّ بالتفوّق في خصيلة كالنّبل. لأن التحلّي بالنّبل أصعب من كسب معركة أو الانتصار في الحرب. وقد اضطررنا بسبب شراستهم أن نوقّع معهم عهوداً كثيرة كنّا أول مَنْ غَدَرَ ونقضها. هذا إثمٌ يجب أن نعترف به. ولكنهم كانوا يوقّعون معنا معاهدة جديدة في كل مرة نجنح فيها للسّلم ونطلب الصلح. وهذا الاستعداد الدائم للمصالحة من جانبهم هو الذي جعلني أعترف لهم بخصيلة النّبل منذ قليل. بوسع الأنذال أن يسمّوا ذلك بلاهة، ولكني أنا، الزعيم، لا يجب أن أجاري الرّعاع في نذالتهم وأصف عدوّاً بالبلاهة لمجرّد أنه قبل مصالحتي في زمن هزيمتي وضعفي. وكانوا، في تاريخ صراعنا

(*) متي ـ متي. الإسم الذي تطلقه قبائل النّو على الطوارق

الطويل، يوقّعون المعاهدات لأنهم منتصرون، وكنّا نوقّع الميثاق ليس من موقف الضعيف، ولكن من موقع الخبيث الذي يحرص أن يحتمي بعدوّه عندما يعجز عن محاربته. ولم يحدث طوال تاريخ الصراع أن بدأوا هم بالهجوم. كنّا دائماً أول مَنْ يُغير على بيوتهم وينهب قوافلهم بمجرّد أن نحسّ في أنفسنا الكفاءة للقيام بهذا العمل الجسور. وعندما يجمعون شتاتهم، ويستردون أنفاسهم ويهاجموننا إنتقاماً لنقضِ العهد نتراجع ونطلب الغفران. لا نطلب الغفران وحده، ولكننا نطلب توقيع صلح جديد. هذا حَدَثَ منذ آلاف السنين. وأنا لم أخترع هذه السيرة، لأني ورثتها عن أسلافي الأوّلين.

سكت طويلاً. راقب العيون الحمراء التي تحيط به في عتمة الكوخ كأنها عيون الجن. واصل الزعيم:

ـ وها نحن اليوم نحسُّ في أنفسنا بالكفاءة والثقة والقدرة على الهجوم وردِّ الاعتبار. نحن لا نستطيع أن نكون نبلاء مثلهم ونلتزم بالمواثيق لسببٍ بسيط هو أننا لسنا مثلهم، طبيعتنا مخالفة لطبيعتهم. فنحن لا نثق حتى ببعضنا، ولا نستطيع أن نعطي ظهورنا لإخوتنا وأبناء عمومتنا حتى لا نتلقى طعنة في الظهر، فكيف نثق بـ «متي ـ متي» لمجرّد أنهم نبلاء؟ الغدر شعارنا. الغدر هو الذي أبقانا على قيد الحياة في تخوم الصحراء منذ آلاف السنين. لقد قررنا أن نستغلّ غضب الجنّ على قبائل «متي ـ متي» بسبب إسرافها في اكتناز الذّهب، ومخالفة الميثاق الموقّع بين هاتين القبيلتين الصحراويتين: أهل الصحراء، وأهل الخفاء. هذه فرصة للانتقام للذلّ الذي عشناه على يدي شيخ الطريقة. وأحب أن أسمعكم بشارة ستساهم في مدِّكم بالشجاعة. لقد قبل الجنُّ أن يتحالفوا معنا في محاربة «واو». ووضعوا طريق الظلمات تحت تصرفنا كي يسهّلوا لنا السبيل. فهل حلمتم بظروف أكثر ملاءمة في أي حرب مَضَتْ؟

توقّف الزعيم. حدّق في العيون الحمراء بعينين حمراوين.

وعندما التقت عيناه بعيني ايدكران إبتسم. قال كأنَّه يخاطبه وحده:

ـ إذا شئنا أنْ نكسب الحرب فعلينا أن نتذكَّر نقطة ضعف العدوّ دائماً. نقطة ضعف «متي ـ متي» في خوفهم من العار. وليس هناك عار يفوق الإجهاز على رجل ألقى سلاحه واستسلم. إستسلموا دائماً وألقوا بالسِّلاح عندما تشعرون بالخطر. ولكن لا تنسوا أن تلتقطوا أسلحتكم إذا غَفَل عنكم الخصم. إذا أيقنتم أنكم تستطيعون أن تتمكَّنوا منه بطعنة قاتلة. هذه كانت خطة الأسلاف معهم. وأنا لا أنوي أن أخالف الخطط المقدَّسة حتى لا يلعنني الأسلاف في قبورهم. أم أن هناك مَنْ يرى غير ما أرى؟

لم ير أحد غير ما رأى الزعيم. ولذا لم يعلّق أحد. لم يهمس أحد. لم يومىء أحد. عاد يقول:

ـ لا أريد أن أضع الأمر بين يدي صديقنا ايدكران، عرّاف تينبكتو، الذي سيكون لنا دليلاً ومساعداً في الغزو، قبل أن أتيقن من إجماعكم على الحَمْلَة. ليس لأني لا أنوي أن أنفرد بالقرار، وإنما لمعرفتي بأن الصّوت الذي يسكت على الشّك في الميعاد سيكون نواة الهزيمة عندما تنشب المعركة.

هزّوا رؤوسهم بالموافقة، وارتفع من صدورهم صوت جماعي ذكّر ايدكران بحشرجة ابن آوى قبل أن يهجم على الضحيَّة.

تهيَّأ الزعيم لتسليم الكلمة للسَّاحر «مامادو» كي يتحدَّث عن الحِلْفِ مع الجن، ولكن حَدَث، في تلك اللحظة، أمرٌ أجبر الزعيم على تأجيل الإذن للساحر بالكلام. لقد نهض في الصَّف الأيسر رجل نحيل، عاري الصَّدر. يلفُّ حول رأسه عمامة هزيلة، بائدة. عيناه صغيرتان، تدور مقلتاهما في المحجرين، يميناً ويساراً، فلا يبدو منهما سوى بياض مشوب بحمرة خفيفة. قال:

ـ ليسمحْ لي زعيم الزعماء، وحكيم الحكماء، وقائد قبائل بني آوى الجليل. لَم أكنْ لأتجاسر على طلب الموافقة لي على الكلام لو لم أر أن مصير القبيلة مرهون بالغزوة. لو لم أر أن التراجع عن الغزوات أفضل من القيام بها عندما لا تستدعي المجاعة ذلك. أعني أن الزجَّ بالقبيلة في غزو، وخرق ميثاق مع قبائل مجاورة، لمجرَّد الرغبة في الانتقام، يشكِّل خطراً على مصير القبيلة، وعلى مستقبلها. لقد استمعت بأشدّ الانتباه لخطاب الزعيم وحاولت أن أفهم الحكمة الدهرية المكتوبة على قبيلتنا في خيانة العهود، والتحلّي بالغَدْر، فلم أتوصّل إلاَّ إلى نتيجة واحدة تقول إن الخطر سيظلُّ مُعلَّقاً فوق رؤوسنا وفوق رؤوس أحفادنا وأنجالنا وذريتنا من بعدنا ما دمنا لا نريد أن نخالف هذا التقليد الأحمق ولو مرّة واحدة في حياتنا!

سَرَتْ همهمة في الميعاد. ابتسم الزعيم بتسامح. لوَّح بحربته الرهيبة في الهواء فعاد السّكون. أومأ للخطيب أنْ يكمل خطابه؛ قال الخطيب:

ـ أردت أن أقول إن علينا أن نفكّر ألف مرة قبل أن نقوم بعدوان نعرف أن «متي ـ متي» سوف يردّونه ناراً تحرق أكواخنا وأولادنا وأجيالنا اللاحقة!

تعالت أصوات استنكار مكتوم. تهيّأ الخطيب النحيل لأن يعود إلى مجلسه، ولكن الزعيم ابتسم في وجهه واستوقفه بإيماءة من رأسه. قال بنفس التسامح:

ـ قبل أن يردَّ الزعيم على شيخ عشيرة «مرو ـ مرو» فإن الزعيم يطلب أن تذهب وتأتي له بالماء ليبلَّ ريقه!

رَكَعَ شيخ عشيرة «مرو ـ مرو» بجلال، وتحرَّك نحو باب الكوخ. في اللحظة التي استدار فيها على عقبيه وانحنى ليخرج تلقّى الحربة المسمومة بين كتفيه. ندَّت منه شهقة، ثمَّ رفع صوته بعواءٍ طويل، فاجع، يشبه عواء ابن آوى. استند إلى الكوخ وحاول أن يتطلَّع إلى الزعيم. دارَ البياض في مقلتيه، ولكن نظرته ظلَّت غائبة. سقط في المدخل وبدأ يرتجف. علا الزّبد شفتيه وفزّت قروح قانية في وجهه بفعل السّم.

أومأ الزعيم للخَدَم أن يبعدوه. تقدَّم ثلاثة رجال لا تستر عوراتهم سوى

بعض خيوط الجلد الملوّن. جرجروه خارج الكوخ. تكلّم الزعيم بتسامح، ولكن بدون حربة:

ـ سيلعنني الأجداد في قبورهم إذا سمحت لمخلوق أن يخالف تعاليمهم حتى لو كان شيخاً في عشيرة «مرو ـ مرو».

التفت إلى ايدكران وسأل بوقار:

ـ هل يتفضّل عرّاف تينبكتو ويخبرنا بما تخبئه لنا النجوم؟

اعتدل العرّافُ في جلسته. شدَّ لثامه الهزيل حول وجهه وقال رافعاً بصره إلى سقف الكوخ:

ـ قرأت في «ايدي»(*) أن القدر كتب على «واو» أن تختفي. وقد عانده في ذلك نفر من الإنس، وأرادوا أن يبعثوها في الصّحراء بعملة الذّهب. وإذا كان الاستيلاء على الذّهب قد أثار الجنّ، فإن فكرة إظهار «واو» من عالم الخفاء إلى دنيا الصّحراء هو تمرّد على إرادة الآلهة، وكفر بالقدر.

هزَّ الزعيم رأسه ثلاث مرّات بدل الحربة المفقودة. ثم التفت إلى السّاحر «مامادو». سأل ببرود الزعماء:

ـ بماذا تبشّرنا يا مامادو؟ هل عَقَدْت لنا العهد مع ملك الجنّ؟

حدَّق «مامادو» في الفراغ. دفع بصدره إلى الأمام، وتراجع برأسه إلى الوراء. بدا مهيباً بفروة شعره المجعّد الأبيض وتاج العظام المحاط برأسه. قال بوضوح يبدو شاذاً في لغة السَّحرة:

ـ ملك الجنِّ يبارك التحالف ويضمن لكم النّصر بشرط واحد.

سكت. لم يقاطعه أحد. لم يستفسر حتى الزعيم حول الشرط. أضاف مواصلاً مراقبة الفراغ:

(*) إيدي. ىحمة تعرف بالكلب (بلغة الطوارق).

ـ الشرط يخصُّ الغنائم. ملك الجنّ يقول إنه لن يدخل معكم في الحلف إذا سوّلت لكم نفوس السوء المَسَاس بالكنوز. الذّهب من نصيب الجنّ، ومن حقكم أن تتصرّفوا في السبايا وبقية الغنائم.

أجابَ الزعيم عن الجميع:

ـ يستطيع السَّاحر «مامادو» أن ينقل موافقتنا إلى حلالة الملك. وقلْ له أن التِّبر لو كان يستطيع أن يخلق «واو» أو ينزل بها من السماء، أو فلنقل الخفاء، لما وصل إلى أيدي التجّار الذين خالفوا به العَهْدَ وأرادوا أن يتخذوه عملة للحياة

رمق الجمع بنظرة شاملة وأعلن بكبرياء الزعيم:

ـ نحن لا نريد إلَّا الإنتقام. الإنتقام هو غنيمتنا الأولى.

ولكن العرّاف حذّره من موقعه في الفراغ:

ـ ملك الجنِّ يقول إن الإنتقام يجرُّ الانتقام، وإذا بدأت اللعبة الوحشية فلن تنتهي إلَّا إذا اندثر أحد الطرفين.

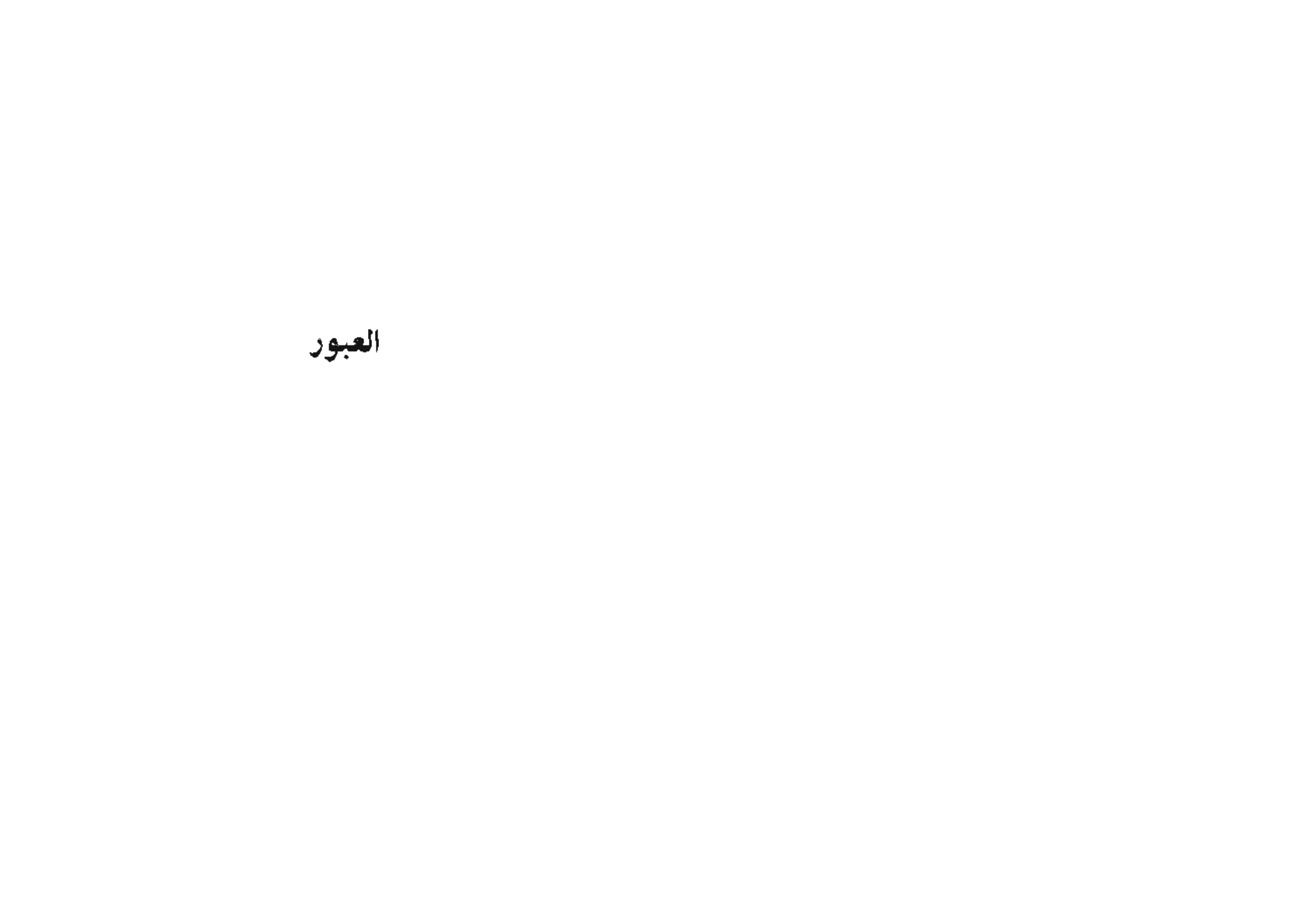
حاججه الزعيم:

ـ قلْ لملك الجنّ أن هذه شريعة البشر. شريعة الصحراء. شريعة الحياة. ما طعم الحياة إذا لم يذق فيها الإنسان شهد الانتقام. قلْ له أني أرثي للجنّ لأنهم لا يعرفون معنى الانتقام.

هزَّ السّاحر رأسه وابتسم للفراغ. ابتسامة كئيبة صغيرة. غامضة.

في الصباح بدأ الاستعداد للغزو.

موسكو
١٩٩١/٤/٢٧م



العبور

(١)

لا أحد يعرف حدود الضياع. لا أحد يعرف حدود هذا القدر لا في الزمان ولا في المكان. متى تمّ الخروج من «واو»؟متى انفصل الصحراوي عن المنبت، عن الأصل؟ أين بدأت مسيرة الشقاء؟ أين تبدأ القارة الخرافية المسمّاة صحراء؟ أين تنتهي حدود العراء؟

حلّ النسيان ففقد الطّريد الذاكرة. كان بإمكان لعنة النسيان أن تتحوّل إلى رحمة تنقذ الصحراوي من شقاء الحنين وعذاب المنفى، ولكنها أصبحت نقمة إذْ أصابت الجسد وأخطأت الرّوح. فقد الصّحراوي، بفقدان ذاكرة البدن، طريق العودة إلى «واو»، ولكنه لم ينسَ كما أراد له الجدّ الأوّل، فتضاعف الشقاء. الرّوح تبحث، تفتّش، تطلب الأصل، والجسدُ تائه، بطيء، بليد، ضيّع السبيل إلى الأصل.

الضَّياع الأول أنجب أكثر من ضياع. ضاع آنهي ففقد الصحراوي دليلاً آخر إلى الحياة. كانت «واو» دليله إلى السّماء، وآنهي دليله إلى الأرض والحياة والنّاس. وعندما أضاع الكتاب أصبح الطريق إلى الأرض مقطوعاً أيضاً. أصبح الوجود نفسه ضائعاً. وجود الصّحراوي في الصّحراء وجود ضائع من البداية وإلى الأبد. الصّحراء نفسها قارّة معزولة، ضائعة عن الكون. الصّحراء تائهة منذ الأزل. ويجمع العرّافون أنها لن تهتدي إلى الأصل أبداً.

الضياع قَدَرُ الصّحراء نفسها فكيف لا يكون قدر الصّحراوي؟

(٢)

جاء دراويش الطريقة القادرية إلى الصّحراء، وروّجوا للضياع. شيَّدوا الزوايا في الواحات وكتبوا على جدرانها بالخطِّ الكوفي: «مَنْ لم يفقد لم يجد، ولا يجد إلَّا مَنْ فقد»، أو «الحقيقة في الفقد». أو هذه العبارة الخفيَّة: «الفقد سرّ الوجد». أو عبارة أخرى أقسى: «الفقد طريق إلى الحق». أو عبارة أخرى أشدّ غموضاً: «لا خير في إمرء لم يذق طعم الفقد». ولم يفت أهل الصّحراء أن يستنطقوا شيوخ الطريقة. تحدَّث شيخ الزاوية إلى الزعيم فقال: «ليس وجدنا جذباً أو عشقاً للحال. ولكنه فرح بالعثور على الكنز الفقيد. الإنسان ينفق العمر طلباً لنفسه الضائعة فإن وجدها جذب ورقص فرحاً. ولم يكن ليستطيع أن يجدها ما لم يفقدها. لا ينوجد شيء أبداً ما لم يضع يوماً. فكيف لا تفرح إذا وجدت نفسك؟ كيف لا ترقص إذا وجدت اللّه؟». ولكن الجواب لم يمزِّق الحجاب، ولم يفتح ثغرة في جدار النسيان. ظلَّ الزعيم يهيم في الفلوات، يسائل العابرين، ويستنطق الجنّ.

حاور فقيهاً جوّالاً.

وجد الفقيه مبرراً للطعن في كفاءة شيوخ الطريقة وحمل على الدراويش: «إذا أردتم، يا أهل الصّحراء، أن تعرفوا الطريق فابتعدوا عن الطريقة. إلى متى تستمرون في الإصغاء لزنادقة يمزّقون صدورهم بالسّكاكين ويدّعون أنهم رأوا اللّه؟. واللّهِ لن تخرجوا من الظلمات ما دمتم تجاورون البدع وتحاورون أهل الطرق والزندقة». ثمّ طلب أجراً على الفتوى قبل أن يجيب على سؤال الضياع. تناول حفنة من التّراب ورماها في وجه الزّعيم. قال: «لقد أردت أن تعرف الأصل. فإليك جوابي». ثم ضحك ببلاهة وأضاف: «لا أصل غير التّراب. منه جئنا وإليه نعود. فكفّوا، يا أهل الصحراء، عن البكاء، وتوقفوا عن طلب الأصل. الاجتهاد إذا زاد عن حدّه انقلب إلى زندقة!». ركب ناقته وسافر إلى المجهول.

ولكن الزعيم لم يمل إلى الفقهاء يوماً. وكان لا يخفي تعاطفه مع الدراويش في صراعهم مع فقهاء الواحات. ويذكر أن الدراويش انزووا في الزوايا عندما هجم الفقهاء واحتلّوا الجوامع. تبعهم أهل الباديات الذين استسلموا للنسيان. في حين ظلّ أهل الحنين على علاقتهم السريّة برُسُل السّر. لأنهم رأوا دائماً أن الحقيقة باقية في الخفاء، واللّه أبى إلَّا أن يكون سرّاً.

(٣)

في «كانو» قابل عرّافاً مهيباً ما زال على دين المجوس. طلب منه العرّاف قطعة الطّرونة(*) قبل أن يجيبه على السؤال. قضم من الجوهرة ومضغ التّبغ ثم بصق اللعاب. تمايل منتشياً قبل أن يجيب: «لن تجد الطريق إلى «واو» دون أن تستعيد الذّاكرة تماماً. في صحرائكم شجرة واحدة تستطيع أن تخرجك من ظلمات النسيان: آسايار! إنها آسايار! هل تعرف آسايار؟. هل تعرف ماذا يفعل هذا النّبات؟ إنه يميتك ويبعثك من جديد حيّاً. يجعلك تولد مرّتين. ابحثْ عن آسايار إذا أردت أن تستعيد ذاكرتك وتجد طريقك إلى إلهك». وعندما حدّث عرّافاً من تينبكتو عن النبتة السّرية ضحك العرّاف حتى دمعت عيناه ثم أخبره أن آسايار إندثر منذ آلاف السّنين، والأمل في العثور عليه استحال منذ زمن بعيد. ولكنه اقترب وهمس في أذنه بالسّر: «يُروى أن راعياً عثر عليه منذ أعوام فأطعم به غنمه ظنّاً منه أنه حلفاء. في الصباح لم يجد القطيع». حدّجه بنظرة خفيّة فسأل الزعيم: «ولكن أين يمكن أن يختفي القطيع؟ إذا لم يهاجمه ذئب فإن العراء لا يبتلع القطعان». قال العرّاف وهو يحدجه بنفس الغموض: «هذا ما أظنّه أيضاً. ولكن الرّعاة أجمعوا أن الماعز تحوّل إلى مخلوقات. والمخلوقات انتقلت إلى الخفاء. آثرت أن تسكن مع الجنّ». سأل الزعيم: «ما فائدة العثور على آسايار إذا كان سينقلني إلى

(*) الطّرونة: نوع من الأملاح التي تُستعمل كنكهة لتبغ المضغ.

الخفاء؟ أنا أريد الحقيقة وليس الخفاء». إبتسم العرّاف ونطق بالمفاجأة: «الحقيقة هناك، في الخفاء. القطيع انتقل إلى الخفاء لأنه عرف الحقيقة. كل مَنْ عرف الحقيقة يفضّل الانتقال إلى الخفاء». هنا سأل الزعيم: «هل يروق للحن أن يقيموا في الخفاء لأنّهم عرفوا الحقيقة؟». ردَّ العرّاف بلهجة صارمة: «وهل شككت في ذلك يوماً؟».

(٤)

تلقّى الجواب على يد حكيم من الجنّ.

خرج من الحمادة مع بداية الصيف في ذلك العام.

فاز بربيع سخيّ شمال الجبال الزرق وَنزح بجماله إلى تادرارت لقضاء الصيف. ترك القطيع يرتع، في وديان تتبعثر في ضفافها أشجار الحلفاء، وصعد إلى المرتفعات. تفقّد الكهوف، وتنقّل بين القمم السماويّة. في مساء اليوم الثالث وجد نفسه في ضيافة القبيلة السّخيّة. استيقظ من إغفاءة القيلولة مع العشيّة فوجد الوادي يفيض بالقوافل: تصايح الرّجال. تباكى الأطفال. تنادت النساء. وتعالى ثغاء الماعز مختلطاً برغي الإبل. رفع رأسه فرأى أكثر من خباء وقد انتصب في حضيض الجبل. على ضفّة الوادي، اشتعلت النيران، وارتفعت ذيول الدّخان. أقبل نحوه فريق من الشيوخ فنهض لاستقبالهم. صافحوه بوقار النّبلاء وجلسوا في مدخل المغارة. أوقد النّار وبدأ يعدُّ الشاي. أخرج لهم طبقاً من التّمر ولكنهم لم يأكلوا. لم يستفهموا عن الكلأ، ولم يأتوا على سيرة المطر. وجد حرجاً في أن يسألهم عن قبيلتهم أو وجهتهم.

عندما شربوا الدّور الأوّل بدأ الحوار.

سمع أحدهم يقول:

ـ البدن مشدود إلى الأرض بألف وتدٍ، والرّوح تريد أن تطير، وتلحق بالأصل.

قال أكبرهم سنّاً وأشدّهم وقاراً:

ـ الصّحراوي وُلد درويشاً من بطن أمّه. يهيم في الخلاء الخالي، ويضرب صدره بقبضته باكياً: «مَنْ أنا؟ من أين جئت؟ ولماذا أدبُّ على قدمين بدل أن أطير بجناحين؟ لماذا جئت؟ ما غايتي في الصّحراء؟ ألَمْ يكن أجمل لو كنت ضوءاً أو نسمة أو قطرة مطر؟ ماذا يمكن أن تفقده الصّحراء لو لم أُخْلَقْ؟ أليس أيسر للجميع لو لم ترَ الصّحراء وجهي من البداية؟ أليس أفضل لو لم أوجد؟». ولا يكتفي الصّحراوي بالسؤال، ولكنه يهرع لأوّل عابر كي يستحلفه أن يخبره مَنْ هو. ومن أين جاء. ولماذا جاء. ويستنطقه عن رأيه فيما لو لم يتوجد. أليس هذا المخلوق درويشاً بالطبيعة؟

ساد صمت.

في الحضيض استمرَّ الهَرَجُ.

التفت أحدهم نحوه وسأله فجأة:

ـ هل تبحث عن «واو»؟ قيل لي أنّك تبحث عن الأصل أيضاً.

همَّ بأن يردّ: «وَمَنْ في الصّحراء لا يبحث عن «واو»؟ مَنْ في هذا الكوكب الضائع لا يبحث عن الأصل؟»، ولكنه لاحظ كيف أسكت الشيخ الجليل الرّجل بنظرة صارمة. تلهّى بخلط الشاي فقال الشيخ الجليل:

ـ هناك مَنْ يجزم أن الجبن في العبور، والمسافر هارب من محاربة الغول في نفسه. ولكنّي أرى أن لا وجود لـ «واو» إلّا في التّنقّل والهجرة. أنت قرين نفسك ما ظللت عابراً، فإنْ توقفت تجاوزتك وابتعدت عنك.

سكت لحظة. التفت نحوه كأنّ الخطاب موجه إليه وحده:

ـ لا يبتلع غول الضياع إلّا العبور. ولا يخفف من وجع السؤال إلّا السّفر. فسافر! إيّاك أن تتخلّى عن السّفر! إذا لم تجد «واوك» في نفسك، في سفرك، فلن تجدها في أي مكان.

في تلك الليلة استضافوه في منتجعهم وأطعموه بصنوف أطعمة لم يذقْ لها طعماً أبداً. وفي الصّباح، عندمـا نهض وتفقّد الحضيض، لم يعـثر لهم على أي أثر. لم يجد أثـراً لا لنيران البـارحة، ولا لـروث القطعـان، ولا أثر الأقـدام. تذكّر أهل الخفاء فابتسم بغموض.

ولكنه لم ينْس تلك التّميمة التي تلقّاها من حكيم الجنّ.

كانت تميمة الحياة.

سرّ التّبر

(١)

في الأيام الأولى لاستيلاء شيخ الطريقة على القبيلة قال لها أحد المريدين: «لن يهنأ لشيخنا بال حتى يقضي على كل إشارة إنتمت إلى الماضي». فهمت الإيماءة يومها، ولكن لم يفتها أنْ تردَّ على الوعيد بلغة مَنْ خبر مزاج الدّهر وعرف غدر الزّمان: «هذه حكمة اللّه في الخلق. لا يهنأ بال لسلطانٍ حتى يمحو آخر كلمة وردت في كتاب السّلطنة». اسْتُفِزَّ المريدُ باللغة الدهرية فسأل باستفزاز مضادّ: «هل تتحدّث العرّافة المجوسية لغة اللّه؟». فردّت بنفس البرود: «ومتى كانت لغة الآلهة حكراً على مخلوق؟». قال المريد: «أراك تتحدّثين عن شيخ الطريقة كأنه سلطان من السلاطين، وليس رسولاً للحق والصراط المستقيم». قالت: «كل مَنْ رضي أن يتولّى أمر قوم فهو سلطان حتى لو ادّعى النبوّة». سكت المريد فواصلت طريقها إلى المرعى. وعندما استدعاها الشيخ للحوار بعد أيّام لم تُفاجأ. ذهبت لزيارته بعد الغروب فوجدته مطوّقاً بحلقة من المريدين. صرَفهم بإيماءة من رأسه وجلس بجوار النّار، يغذّيها بالحطب ويستعدُّ لتحضير الشّاي. توقعت أن يبدأ بالتلميح من أبعد زاوية على عادة الحكماء والمعمِّرين، ولكنه فاجأها فدخل من أقرب باب:

السِّحر رجسٌ من عمل المجوس والشياطين، وقراءة الغيب تدخّل في شؤون الخالق الذي لا يعلم الغيب سواه. أم أنني أخطأت؟

ابتسمت، فهمت أن الشيخ لا ينتمي إلى فئة الحكماء، ولكنه يؤثر المباغتة مما يجعله جديراً للفوز بلقب «محاوب». قالت:

ـ كلاّ. سيّدنا الشيخ لم يخطىء، ولكن سيّدنا يعلم أيضاً أنه ينير البصيرة لَمْنْ شاء، ويرفع الحجاب في وجه مَن أراد، ويكشف الطريق للأخيار. أنا لا أشك في أن شيخ الطريقة القادرية هو أوّل مَنْ يعلّمنا أن القدرة هي التي تجعل من أدنى العباد أخياراً، وأضعف خلقه أولياء. أم أن العرّافة أخطأت في العبارة كما أخطأت قبلها في امتهان علم الإشارة؟

ابتسم الشيخ أيضاً. عبث بلحيته لحظات. إقتحم النّار بالمسعر. أيقن أن العرّافة خصم من فريق مُحصَّنٍ ضد الضرب المباغت فصمّم أن يناور:

ـ يؤسف شيخ الدنيا والدّين ألّا تخطىء العرّافة المجوسيّة، ولكن يَسُرّه أن يراها وهي تتكلّم لغة اللّه وتحتكم إلى القدرة للمحاججة والبرهنة. أوافقك أن السرّ في القدرة ولكن لست أنا مَن رجمكم بالكذب حتى ولو صدقتم.

ـ أنا لا أتحدّث عن رأي الشَرْع، ولكن أتحدّث مع شيخ الطريقة القادريّة الذي يرى اللّه في كل حضرة.

رمقته من تحت اللحاف ثمّ واصلت:

ـ أستطيع أن أعترف أن ثقتي في مخلوق تبدّى له الخالق أكبر من ثقتي في الشّرع. لأن المخلوق الذي منّ اللّه عليه بالرؤية هو من فئة الأخيار التي ستفهم معنى أن تمسح دمعة فزّت من عين شقيّه، أو توقف النزيف في قلب أُصِيبَ بالفجيعة، أو تنزل العزاء في صدر فاض به الحزن.

هنا قاطعها الشيخ:

هذا لا يقرُّه الأخيار، ولا يؤيدك فيه أهل الكَشْفِ. فالعزاء خديعة، وإيقاف النزيف في القلب المفجوع أكذوبة. أعترف أننا نختلف مع السُّنّة

وأهل الظّاهر في معالجة نوائب الدّهر، ونحتكم إلى لغة أخرى في قراءة دستور الحياة، ولكننا لا نتعامل بالأكاذيب لسبب بسيط وهو أننا نؤمن بالقدر.

ـ وهل يتعارض القَدَرُ مع الرحمة يا فضيلة الشيخ؟

ـ لا أفهم ماذا يمكن أن تعنيه الرحمة هنا، ولكن أعرف شيئاً واحداً وهو أن الشقاء إذا اختار مخلوقاً فما على المخلوق إلّا الإبحار في الألم، لأن القدر هو الذي شاء أن يكون شفاءه في الألم. الأديان تجمع أن الخلاص في الكفّارة...

كان قد بدأ يخلط الشاي. ويبدو أنه تذكّر أمراً خارقاً عندما توقّف عن الخلط فجأة وصاح:

ـ ولكن انظري. ألا تريدين أن تقولي إن مهنتك عمل أرضي ولا علاقة لها بالآلهة؟

استنكرت العرّافة:

ـ أن أنزل بالحرفة من النجوم، وأمسح جراح الخلق على الأرض أمر لا يجعلني أقطع صلتي بالسماوات، كما لا أظن أن ثمة مهنة تستطيع أن تزرع الرحمة بين النّاس دون أن تكون وطيدة في صِلاتها بالسّماء.

ـ الحق أن رسم الأحجبة برموز الجنّ عمل لا يقرّه شرع السُّنّة ولا يستطيع شيخ الطريقة القادرية أن يتساهل معه مهما تخلّق بالتسامح والحلم.

استماتت في الدفاع:

ـ الفقهاء أيضاً يكتبون الأحجبة ويرسمون التعاويذ.

ـ ما يشفع للفقهاء هو القرآن. تعاويذ الفقهاء بلغة اللّه، وتمائمك مرموزة بلغة الجنّ وأشباه الجنّ.

ـ ما ضرّها أنْ تُكتب بلغة أهل الخفاء إذا كان فيها شفاء للنّاس؟

ـ لا شفاء إلاَّ في الشقاء. ألَمْ نتفق منذ قليل أن لا وجود للطهارة بدون عذاب؟ اعلمي أننا خُلِقْنا للشقاء والحياة ليست رحلة فرح.

ـ ما ضرَّها لو كانت رحلة فرح؟

ـ أنا لا أتدخّل في المشيئة، والتفكير أبعد مما يجب شقاءُ آخر.

ـ حاولت أنْ أهوِّن من شقاء المخلوق الصّحراوي.

ـ لن يهوِّن من شقاء المخلوق سوى الفناء. الخلاص في الزوال.

ـ ما ضرَّ لو عاش المخلوق سعيداً قبل أن يبلغ البابِ وتستعيده «واو»؟

ـ أنتِ تتدخلين كثيراً في المشيئة. التدخل في شؤون القدر جريمة كل عرّاف.

قدَّم لها الشاي في وعاء من خشب. مال نحوها بجسمه وتفحّصها باستفزاز. ظلَّ يحدِّق في وجهها كأنّه اكتشف وجودها لأوّل مرة. سحبت اللحاف الأسود حول وجهها وتناولت رشفة من الشاي. استمرَّ الشيخ يحدِّق حتى قال:

ـ أنصحك أن تلزمي الخِباء منذ اليوم!

استمرَّت ترتشف الشاي ببرودٍ. لم يفضح وجهها أي تعبير ينمُّ عن دهشتها بالحكم. أضاف الشيخ:

ـ إذا خرجت إلى العراء فلن أضمن سلامتك من استفزار المريدين.

أعادت إليه الوعاء وقالت بهدوء:

ـ يدهشني أن يحكم بالحَبْس مَنْ جاء يدعو لدين الحريّة.

إعتدل الشيخ في جلسته. همز النّار بالمسعر. قال باقتضاب:

ـ الحَبْسُ قَدَرُ المخلوق منذ أن حَشَرَه اللّه في البدن.

ـ هذه لغة الطريقة. هيهاتِ للعجوز البائسة تيميط أن تفهم لغة أهل الكَشْف.

ـ أردت أن أقول إنني لست مَنْ ابتدع المعتقل. ولكنّي أحاول أن أحاكي

ذي الجلال كما يليق بكل مخلوق.

ـ إذا كان اللّه قد خلق الإنسان في المعتقل فإنّه تركه طليقاً في كوكب اسمه الصّحراء.

ـ ما فائدة أن يتسكّع في الكوكب الصّحراوي إذا كان محشوراً في قفص؟

ـ أنت تعرف أن المخلوق لن يكون مخلوقاً ما لم يُحشر في كوز الطّين. البدن برهان على وجود المخلوق كما ترى.

ـ لا أرى للسجين خلاصاً إلاَّ يوم يتكسَّر القيد، ويتحطَّم كوز الطّين وتتحرر شعلة النّور من ظلمات البدن وتخرج إلى النّور السّماوي.

ـ ها أنت تعود إلى لغة أهل الكَشْفِ مرّة أخرى.

ـ الحَبْسُ قَدَرُ الإنسان.

ـ ألَن توافقني بأن الصّحراء هي بديل هذا الحبس؟

ـ أبداً. لن يبدِّل حبس البدن إلاَّ الفناء.

سكتت العرَّافة. هَمَدتِ النّار في الموقد فنزلت الظلمات. في المضارب البعيدة إرتفع صوتٌ بأغنية شجنية قديمة. قالت العرَّافة:

ـ حَسِبْتُكَ من عشّاق الصحراء.

أجاب الشيخ بعد صمت طويل:

ـ لا أنكر أن فيها سرّ الفناء. ولكن هل أستطيع أن أعشقها ما دمت لا أرى فيها ما يراه العابرون؟ هل أستطيع أن أعشقها ما دمت لا أرى فيها الخلاص البديل لِحَبْسِ البدن؟

عبث بأحشاء النّار فتوهّج الجمر. عدَّل وعاء الشّاي وردّد:

ـ الصّحراء. الصّحراء. إنها كالحياة: وهم. سراب يعد بالماء، ولكنه لا يقود إلاَّ إلى الفناء. والعابر وحده عرف السّر. العابرون جديرون بالبطولة لأنهم الوحيدون الذين عرفوا السّر وصمموا أن يمشوا وراء السراب إلى النهاية

ويضعوا لمكائده حدّاً. إحتقروا الحياة وحوَّلوا الخلاء إلى قنطرة يعبرون منها إلى «واو»، إلى الفنـاء. لقد رفضـوا أن يتلقوا منـكِ الإحسان. رفضـوا أن يتقَبَّلوا عَزَاء العبيد وذهبوا إلى القدر في ملكوته كي يقفوا على حقيقة الأمر بـأنفسهم. أليس العابرون أبطالاً؟

العرّافة لم تجب. في المضارب البعيدة نطقت الأغنية الشجنيّـة بالاغـتراب والفجيعة.

(٢)

لا يعـرف أحـد كيف استـطاعت «تيميط» أن تتحمَّـل خَشَن الصحراء. ولكن لم يرها أحـد خارج خـبائها منـذ ذلك اليـوم. ورُوي أن شيخ الـطريقة منعها من الخروج حتى لقضاء حاجتها، وأوقف عدداً من العبيـد يقومـون على خدمتها. يأتون لها بالمؤن والماء، ويتولّون تطهير الخباء من الفضلات كما تفعل الأمهات مع أطفالهن الرُّضَّع. وكما يحدث دائماً عـنـدما يكتئب الـزّمان ويَعْبِس في وجه الإنسان فإن الأكثرية تتنكَّر له ويجد التعاطف والوفـاء من فئة لم يـتـوقَّع منها الوفاء. تنكَّرت لها الصديقـات، وامتنعت عن زيارتهـا الجارات، ولكنهـا تلقّت العـطايا من نسـاء لم ينلن منها سـوى المكابـرة والإحتقـار. فعـرفت أن العرَّافة أيضاً تجهل طبيعـة البشر، كما لم تؤتِ من العلم بـالـمـوس إلاّ قليـلاً. فكـان على تيميط الحكيمـة (التي تعيش في البرزخ ولا تـرى سوى العيب) أن تشكر الزّمان على كآبته وتقلّبه. لأن لا شيء في الصّحراء، وفي الحيـاة، يجعل المخلوق يعرف نفسه ويعرف معدن الجار مثل هذه النعمة الإلهيـة التي يسمّيها العـوام: غدر الـزّمان. ولا تـستـطيع أن تنسى كيف جـاءها خصمهـا القـديم الدرويش موسى حاملاً عطيّة من الفطائر المدهونـة بالسَّمن. جلس في مـدخل الخباء ورأت كيف لَمَعَ فمه، تحت شعاع الضُحى، بخيط طويل من اللّعاب. سمعته يومها يتكلّم بلغة المجاز:

ـ جئتُ لأُسْمِعَ العـرَّافـة شيئـاً أظنُّ أنها سمعتـه من معلميهـا في كـانـو وتينبكتو.

مسح اللُّعاب بكمِّه وحَدَجَها بعينه الحولاء قبل أن يضيف:

ـ إنّها حكمة عرفتهـا الصّحراء بفضـل أجدادي الـذئاب. فهم وحـدهم يملأون الخلاء ضحكـاً وفرحـاً عندمـا ينزل عليهم المصـاب ويعانـون الجوع. ويُقال إن القهقهات ونوبات الضحك تستمر معهم مـا استمرَّ الجـوع. ولكن لا تظنّي أنهم يسخرون من القـدر وهم يتلوون من الضحك، ولكنهم يفعلون ذلك لأنّهم الوحيـدون في الصّحراء الذين فهموا حكمتـه وعرفـوا أنه لا يـرمي المخلوق بالجوع إلاّ ليلهيه قليلاً حتى يفرغ من إعداد مفاجأته الكبرى.

اعتـدل في جلسته ومـلأ راحته بـالتّراب وراح يذروه في الهواء كـما يفعـل الأطفال ثم واصل حديثه عن مفاجآت القدر:

ـ هل تعرفين هذه المفاجأة؟ لا شك أنّك تعرفين. إنها الوليمة. القـدر لا يرمي الذئاب بالجوع إلاَّ إذا انشغل في إعداد الوليمة الكبرى. القـدر لا يرمي أحداً بالمصيبة إلاَّ إذا أراد أن يعدَّ له الفوز. هل تفهمين؟

ولكنّه لم ينتظر جوابها. ملأ راحته اليسرى أيضـاً بالـتّراب وتركـه ينساب بين أصابعه كالهباء. أضاف:

وأنتِ تعرفين أنه يروق له أن يعكس الآية أيضاً. ويشاء الحظ، أو القدر نفسه، أن يكون أجدادي الذئابِ هم أوّل مَن فهم سرّ الآية المعكوسة. فقـد منَّ عليهم بالرّخاء حتى شبعوا فاسترخـوا. وكان ثمن الاسـترخاء كسـلاً ولهواً وغفلة. وأنتِ تعرفين معنى الغَفْلَة في لغة الدراويش.

سكت. انحنى فـوق التراب حتى كـاد أن يقبِّله. استمرَّ جـاثياً عـلى كوم الرملة:

ـ الخـطيئة دائـماً في الغَفْلَةِ. والغفلة بنت الاسـترخـاء. والاسـترخـاء ابن الرّخاء. فهل تتوقعين شيئا آخر غير القصاص؟ هل تـستطيع الـذئـاب المسكينة أن تجني غير المجاعـة والهلاك؟ فتعلمت أن تبكي وتمـلأ الصحراء عـويلاً منـذ

ذلك اليوم. عَرَفت لعبة القدر الخفيّة. تعلّمتْ أنه يريد أن ينزل على رأسها الجزاء إذا ابتسم ومنَّ على الأرض بالرَّخاء. وبالعكس، إذا عبس، فإنّه يبعث لها بالمجاعة. إنه يريد خيراً إذا فعل شرّاً، ويريد شرّاً إذا فعل خيراً. فلتتعلّم العرّافة أن تقرأ آيات القدر مقلوبة.

قيل إنّ العرّافة قفزت في ذلك اليوم وقبّلت قدمي الدرويش. وهي رواية تناقلها الخَدَم، وتنقلت في النجع طويلاً، ولكن لم يصدقها أحد من البلاء لمجرد أن شهود قُبلة التوبة كانوا من الخدم الزنوج.

هؤلاء الخدم هم الذين رووا أيضاً أن العرّافة تيميط تفوّهت بعبارة واحدة وهي تمسح دموعها فقالتْ:

حسبتك عدوّي، فاغفرْ!

فأجابها الدرويش بلغة الدراويش:

ـ أنا لا أعادي إلَّا مَنْ عادى نفسه.

يبدو أن تيميط لم تلتقط الإشارة في ذروة انفعالها فتفوّهت بعبارة مستعارة من لغة البروج:

ـ ما أجهل الإنسان إذ يحسب عدوّه صديقاً، وصديقه عدوّاً!

وروى الدهاة أن الدرويش هو الذي أوحى لها أن تبعث إلى معلمها الأوّل في كانو بتلك الصرخة الرهيبة التي استعارتها من الأساطير وكانت سبباً في القضاء على شيخ الطريقة ووضعت النهاية لسلطانه على الصحراء.

(٣)

عندما نهشت الغيرة قلب الضرَّة، ولم تعد تحتمل أن تستمرّ «تانس» في الاستيلاء على مخدع الأمير وقلبه، فاحتكمت إلى المكيدة. انتهزت فرصة غابت فيها «تناس»، فصمّمت أن تبدأ الانتقام من شقيقها المدلّل

«أطلانطس». تنكّرت في لباس «تانس» فطلبت من الأمير أن يخلّصها من «أطلانطس» ويأمر رجاله بنحره. دُهش الأمير، كما دُهشت كل الحاشية، أن تتنكّر الأخت لأخيها المحبوب فتأمر بنحره بعد أن اقتطعت من فخذها قطعة لحم يوماً وافتدته بها حتى لا تنحره الشقيّات الجائعات. ولكن الضرّة الشريرة، المتنكّرة في ثياب «تانّس» قالت إنها تعبت من مزاج الأخ المدلّل ولن تتراجع عن قرارها في التخلّص منه. تهيّأ الوجال لتنفيذ العقاب، وطلب أطلانطس أن يلبّوا له رغبة أخيرة فأمهلوه. إعتلى الوابية وصرخ في الخلاء: «تانس، يا تانس، ها هو أخوك الحبيب يُساق إلى المذبح». فسمع الناس استجابة للنداء. إذْ هتفت تانس في معتقلها بالوادي البعيد: «أطلانطس، يا أطلانطس، ماذا تستطيع تانس أن تفعل لإنقاذ حبيبها أطلانطس إذا كان شعر رأسها مشدوداً إلى جذع الطلح، وجسمها يرقد تحت صخرة». هَرَع الأمير برجاله وأنقذ تانس، ثم سلّمها الضرَّة الشريرة لتفعل بها ما تشاء، فأتت بجملين يقودهما مجنونان. شدَّت رجلاً إلى جمل، والرجل الأخرى إلى الجمل الآخر، وسار المجنونان وراء جمليهما فتمزَّقت الضرَّة إلى نصفين. ثم قطّعت تانس لحمها ووضعته في قُدْرٍ بعثت به هديّة إلى أُمِّ الضرَّة الشرّيرة(*).

بهذه الصرخة الرهيبة التي أطلقها أطلانطس اليائس وأنقذته من الموت بعثت العرَّافة إلى معلمها في كانو. ويُقال إنّها كتبت النداء الفاجع بـ«تيفيناغ» على رقعة من جلد الغزال، وسلّمتها لرجال القوافل المتجهين إلى كانو.

بعد شهور تلقت الرّدَّ.

لم يبعث لها العرَّاف الدّاهية ردّاً مكتوباً بـ«تيفيناغ» على رقعة من جلود الثعابين، ولم يرسل وصيّة شفوية منطوقة بلغة «الهوسا»، ولم يلجأ لأي رمز من الرموز التي اشتهر بها سحرة تلك البلاد الخفيّة التي تعدّ فيها الإشارة لغة يومية للتعامل بين النّاس. ولكن العرّاف المجوسي الرّهيب أرسل لتلميذته صندوقاً صغيراً من خشب الأبنوس، مزخرفاً بالمنمنمات والأشباح، ملفوفاً في

(*) مقتطف من أسطورة الطوارق الملحميّة «تانس وأطلانطس».

خرقة بالية من القماش. فتحت تيميط الصندوق فلمع جوفه بالهباء السرّي، بالذرّات اللعوبة. بالمعدن الخفي. بحلم يقطع الخلق وراءه الكوكب الصحراوي. يولدون من بطون أمهاتهم كي يمتهنوا الجري وراءه، فيقاتلون في سبيله، يُفني بعضهم بعضاً. يضحون بأنفس عطيّة، بالوهج، بالشعلة الأولى، بالحياة، كي يحصلوا عليه. يهربون من اللّه كي يسجدوا له. ينسون آيات الحياة (الماء، الهواء، الصحراء) ويقايضونها مقابل حفنة واحدة منه. يقايضون اللّه نفسه مقابل الغبار السرّي. الغبار اللّعوب، كالسّراب، اللمّاع كالسّراب، المخادع كالسرّاب. فيحوِّل رحلة الحياة من فردوس للمتعة والصفاء إلى جحيم وسباق وشقاء. هذا هو التِّبر. هذا هو غاية الرّجال وأمل النساء. هذا هو إبليس الصحراء الذي يبني المدن ويصنع العجائب إذا حضر. هذا هو إبليس الصحراء الذي يهدُّ المدن ويحوِّل الأرض إلى خرائب إذا غاب. فأي سرٍ فيك أيها التراب الأصفر غير اللمز والغمز؟ أي سرّ يجعل التراب المأخوذ من التراب يأخذ الإنسان من نفسه ويمحو عقله وينسيه ربّه ويجعله يذهب وراءه إلى العدم طائعاً؟ أي سرّ في هباء أصفر يعمي الأولياء ويركّع السّلاطين؟ أي سرٍّ في التبر؟ أي سرٍ في إبليس؟ أم أنك، يا تبر، أقوى من إبليس؟

(٤)

ليلتها لم تنم العرّافة. جلست تخاطب البروج وتقرأ في كتاب النجوم طوال الليل. وعندما شقَّ القَبَسُ العذري الأفق، وفصل بدن السماء عن جسد الصحراء إبتسمت تيميط بغموض. توسّدت ذراعها ونامت دون أن تقتل ابتسامة الغموض على شفتيها.

انتهت من فكّ رموز الخطاب، وبعد أيّام بدأت في تنفيذ الوصيّة: لفّت الصندوق، المنمنم بالجنّ، في نفس الخرقة البالية، وبعثت به إلى شيخ الطريقة.

ويُروَى أن سعادة الشيخ بالصندوق جعلته يحمله معه في كل غزواته. ولم يُعْرَف حتّى اليوم كيف فاته أن العرّافة الصحراويّة السجينة إذا أهدت

لسجّانها حبلاً، فإن هذا الحبل لا بدّ أن يتحوَّل في الليل إلى ثعبان يلتف حول العنق.

مضت شهور أخرى فخرج شيخ الطريقة للغزو. في «تيمنوكالين» تحوَّل الحبل إلى ثعبان فأباد جنود المجهول جيشه، وقطعوا رأسه، واستعادوا الصندوق الخفي المنمنم بصور الجنّ.

(٥)

صندوق الجنّ لم يكن شركاً لشيخ الطريقة وحده، ولكن تيميط التي فكّت إشارة معلمها القديم ما لبثت أن وقعت في نفس الفخ. لقد اعتمد داهية «كانو» على فراستها في قراءة الرّموز السحرية، ولكنه نسي أن يرفق بالصندوق إشارة أخرى تحذِّرها من التّبر، وتترجم لها معناه في معجم كهنة الأدغال. نسي المعلم أن تلميذته التي تنقلت في الصحراء ورافقت القوافل، وعاشرت التجار، قد تطبّعت بأخلاق التجارة، فغابت عنها التعاليم، ونست الخطر الذي حذَّر منه دستور السحر دائماً.

جرَّبت تيميط مفعول التّبر فبلبلها النّصر وصمّمت أن تستولي على المسحوق السّري لتستخدمه كسلاح في وجه أعدائها الكثيرين.

ولكن التراب الشيطاني تسلل إلى قلبها دون أن تدري. لم تقدِّر موهبة الهباء في التلوّن والخداع فامتلكها بدل أن تمتلكه. سخَّرها بدل أن تسخِّره. بدأت تكتنز منه منثوراً ومسبوكاً فعاد العداء بينها وبين الدرويش يشتعل أشرس مما مضى.

لم تدر تيميط متى زلَّت. لم تدرِ العرّافة الحكيمة أنها خانت حكمتها ومهنتها. لم تدرِ أن بصيرتها أصيبت بالعماء. لم تدرِ أن الغيب تنكَّر لها. لم تدرِ حتى انقلب سحرها عليها ووجدت، ذات ليلة مشؤومة، مِدْيَة الإمام في نحرها.

بيرن ـ جنيف

بين ١٠ و١٦/٦/١٩٩١م



الشبح

(١)

تبدَّى له في الجسد أول مرّة عندما وقف يخاطب رجلاً بارّاً اشتهر بالفضيلة قيل إنّه ينتمي بأصله إلى سلالة الأشراف. جاء ماراً بالنَجْعِ في طريقه إلى الحجّ، فخرج ليشيعه ويهوِّن عليه وحشة الصّحراء مؤدياً فريضة قديمة ورثها عن الأسلاف. كان يظهر فوق رأس الرجل الوقور، مثل ساهور القمر، عقب كل جملة يتلفّظ بها الضيف ليردّد وراءه عبارته القاطعة: «لا تصدّقه!». في المرّة الأوّلى خُيِّل للزعيم أنّه يتوهّم. وفي المرّة الثانيّة ظنَّ أنه شبح من صنع الأرق وطول السهر. وفي المرّة الثالثة أيقن أنه نفر من قبائل الجنّ. بسمل وقرأ آية الكرسي سراً. ودّع الضيف وعاد إلى النجع. زحفت عتمة المساء على الصحراء. قطع مسافة قصيرة فوجده يمشي بجواره ويبتسم ابتسامة غامضة وخبيثة. يرتدي عمامة سوداء. يلفُّ يديه وراء ظهره كأنّه يحاكيه ويتعمَّد أن يستفزّه. حرَّر يديه وأسرع في خطوه. وجد الشبح يحرّر يديه أيضاً ويهرول بجواره. بسمل مرة أخرى وتوقّف. التفت إليه وفي عينيه غضب ووعيد. ولكن الشبح لم يتراجع. واجهه بابتسامة غامضة. صاح الزعيم بغضب مكتوم:

ـ مَنْ أنت؟

لم يجب. ازدادت الابتسامة في عينيه غموضاً. هتف الزعيم:

ـ هل أنت إنس أم جان؟

هنا أطلق الغريم تلك الهأهأة المشبوهة التي تذكرها آدّه طويلاً:

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ـ هيء.

لم يزد على الهأهأة المكتومة حرفاً واحداً. تقهقر حتى ابتلعته عتمة الغروب. ولكن الزعيم لم ينسَ نفيه القاطع لآراء الرجل الفاضل بالعبارة الوقحة: «لا تصدّقه!».

(٢)

مضت سنوات ولم يظهر. نساه الزعيم كما نسي الموقف مع الرجل الفاضل. ولكن الصحراء لا تعرف الصدفة، ولا تنسى التفاصيل، وتنسج الحياة بخيوط خطّة خفيّة. نزل الزعيم في أحد أسفاره واحة مرزق، فوجد الأهالي يتسلّون بسيرة الفضيحة. قالوا إن رجلاً من الأعيان إتهمته ابنته بمعاشرتها فتبرّأ منها وحكم عليها القاضي بأن تُرجَم حتى الموت عقاباً لها على ادّعائها الفاحش. تجوَّل في السوق حتى العشيّة. ثم ذهب لزيارة صديق قديم رافقه منذ سنوات في رحلات القوافل إلى أغاديس وتينبكتو. وجده يتقرفص عند جدار البيت. يحضّر شاي العشيّة ويعارك أسراب الذباب. عانقه ورحَّب به طويلاً قبل أن يبدأ الرواية ويتسلّى بسرد الفضيحة. هشَّ الذباب بمروحة السعف قبل أن يقول:

ـ ذهبت البُنيّة إلى بيت القاضي، واشتكت إليه من المُنكر.

أصاب ذبابة كبيرة بكفّه، ومروح على الجمر بنسيج السعف. واصل:

ـ هل تدري ماذا قالت الفتاة للقاضي في تلك العشيّة المشؤومة؟

إنشغل الزعيم بمتابعة شبح السراب وهو يتسكّع في الأحراش ويدبِّر مكيدة لإشعال الحريق في النّخيل. لم تفضح عيناه فضولاً فأصيب محدِّثه بخيبة أمل. ولكن الخيبة لم تمنعه من الاستمرار:

ـ قالت للقاضي أن أباها اغتصبها بالقوة قبل أن ينقضي على زواجها شهر واحد.

رمقه الزعيم بإستنكار فدخل التاجر في التفاصيل:

ـ كذَّبها القاضي فأقسمت بالآلهة والملائكة وكتب السماء. جاء لها بالمصحف فأقسمت على كتاب اللّه أمام جمعٍ من الشهود والعقلاء. تدخّل أهل الحكمة وأقنعوها بأن مصير أبيها سيكون الرجم بالحجارة إذا لم تتراجع عن التهمة الفظيعة التي رمته بها. فهل تعرف ماذا حدث؟

إشتعل حماس التاجر فنسي أن يبحث عن الفضول في عيني ضيفه. لمعت عيناه ببريق وهو يقول:

ـ تراجعتِ الفتاة المسكينة، ولكن الأب لم يتراجع. سحبت إتهامها وأفادت في المَجْمَعِ أنّها رمته بالباطل. هنا قام الأب ولعنها أمام الجميع. تبرّأ منها فاتخذ القاضي قراراً برجمها حتى الموت عقاباً لها على التّهمة القبيحة. بارك مجمع العقلاء قرار الرجم، وصدّقوا على العقوبة لقطع الكُفر وتطهير الواحة من الأصل الكريه..

مسح العرق عن جبينه. تمتم منكّس الرأس:

ـ سيجري تنفيذ الحكم عشيّة الغد. ليلة الجمعة.

(٣)

في الطريق لحضور شعائر القصاص تحدَّث التاجر بالسّر:

ـ لا أخفي عليك. الفتاةُ المسكينة على حق!

حَدَجَهُ الزعيم بنظرة استفهام فأوضح الصديق:

ـ منذ عام جاءتني الفتاة مرعوبة وقالت لي أنها على استعداد لأنْ تتزوجني إذا هربت بها من الواحة برفقة القوافل. فاجأني الإقتراح فسألتها عن السبب الذي يجعلها تعرض الزواج على رجل يكبرها بخمسة وعشرين عاماً وهي الصبيّة البكر التي تتمتّع بالجمال وبالسمعة الطيبة وبالانتساب إلى سلالة الأشراف. فقالت إن أباها يريد أن يكرهها على الزواج من شيخ سكير ومزواج

دفع له مالاً وفيراً ثمناً لها. ولكني لم أصدّقها. قلت لها أن تمهلني يومين لأفكر. وعندما عادت في المرّة الثانية ساعدتني تجربتي في التجارة في أن أحبرها على الإعتراف بالحقيقة. هل تدري ماذا قالت؟

إنحنى على قدمه وأصلح من وضع النّعل في رجله. عدّل عباءته حول منكبه وأجاب عن السؤال:

ـ قالت إن الزواج برجل مثلي لن يغضب اللّه. ولكن الاستسلام لجنون أبيها منكر كبير لن تغفره لنفسها، ولن يغفره اللّه لها. وهي تنوي الهرب حتى تنجو من الإثم وتنجّي الوالد من كبرى الكبائر. نعم. قالت إنّها تفعل ذلك حرصاً عليه من شيطان الشهوة، وإنقاذاً له من لعنة اللّه. ولكن رفضت العرض.

صرخ الزعيم بسؤال قاطع:

ـ لماذا؟

أجاب التاجر بانكسار:

ـ لا أدري. ربّما لأنّي لم أتصوّر أن يحدث ما حدث. لم أتخيَّل أنَّ بإمكان رجل فاضل مثل الشيخ السردوك أن يقترف الجرم...

قاطعه الزعيم:

ـ هل قلت الشيخ السردوك؟

استفهم التاجر:

ـ هل تعرفه؟

ـ هل هو من الأشراف؟

أجاب التاجر بلا تردد:

ـ من أشراف زويلة فهل تعرفه؟

سكت الزعيم. تكلّم بعد مسافة:

ـ لقد حذرتك واستنجدت بك فخذلتها. وها هو مجلس العقلاء يأمر برجمها.

ـ ليس هذا ما يؤلمني. ما يؤلمني هو أنني الوحيد الذي يملك المبرر والبرهان على تصديقها. عندما إتّهمت والدها بجريمته لم يصدقها أحد لا من الأعيان ولا من عامّة الأهالي. وقد أجبرها المجلس على أن تتراجع مستغلاً حرصها على دفع الأذى عن أبيها. وعندما فعلت قلبوا المدية إلى نحرها وقرّروا أن يقيموا عليها الحدّ. الفتاة مخلوق نبيل وبريء.

ـ كان ينبغي أن تتدخّل. لماذا لا تتدخّل؟

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات.

ـ أنت شريك في التنكيل بمخلوق بريء. تركتم الآثم الكبير وأنزلتم العقاب في ضحيّته المسكينة فأين العدالة؟

ـ لا توجد عدالة. أيقنت أن العدالة انقطعت من الأرض، وربّما لم توجد في يوم من الأيام.

ـ كنت قادراً على إنقاذها. إذهبْ إلى القاضي واعترفْ بالحقيقة.

قال التاجر بعد صمت طويل:

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات. لن يصدقني أحد. شهادة فردٍ لوحده لا تلغي حكماً أقرّه مجمع العقلاء. هذه شريعة الواحة.

ـ سبحان اللّه. هذه شريعة الواحة وليست شريعة السماء.

أجاب رفيقه بخيبة:

ـ شريعة الواحة أقوى من شريعة السّماء.

كرّر العبارة مرّتين قبل أن يسكت.إحتمى بالصمت طوال المسافة الباقية.

(٤)

عبرا حقولاً بائسة. إجتازا أحراش النخيل. خرجا إلى العراء. انكسرت

الشمس نحو مثواها اليومي ولكنّها لم تتخلَ عن غطرستها. استمرّت تبعث النار في أشعتها المكابرة.

غرب الواحة امتدّ سهل رملي فسيح. في نهاية السهل ارتفعت قامة المرتفعات الرمليّة التي تتوالد وتتواصل في صحراء «مساك ملّت». في الطرف الشرقي لاحظ الزعيم حشداً من النساء. على مسافة خطوات تجمّع الصبيان يهشّون حماراً محمَّلاً بأثقال. في الطرف المقابل، أقصى الغرب، وقفت كوكبة مهيبة من الأعيان. بجوارهم تجمّع خليط من الرجال. في المسافة الفاصلة بين التجمّعين الشرقي والغربي تكأكأ العمالقة حول الضحيّة الشقيّة.

كان شعرها الفاحم الطويل مشدوداً إلى عمودين طويلين. يداها معقودتان إلى الوراء بحبلٍ شرس من مسد. أمسك ماردان بالعمود الأيمن، وأمسك الماردان الآخران بطرف العمود الأيسر.

إقترب الزّعيم، مع رفيقه، من الموقع. رأى الحسناء عن قرب. كانت فاتنة. طويلة. تميل إلى الإمتلاء. ترتدي قفطاناً باهتاً واسع الأكمام يبرز العجيزتين والنهدين النافرين. أنفها مكابر، والشفتان مكتنزتان. و... عيناها. عيناها كبيرتان، كحلاوان كعيني غزالة بريّة. التقط الزعيم فيهما نفس التّعبير الذي رآه دائماً في عيون الغزلان: الحزن والغموض. نعم. في عينيها حزن وغموض وسكينة. يستطيع أن يفهم الحزن، وكذلك الغموض، ولكن من أين جاءت العينان بالسّكينة في مثل هذه اللّحظة العصيبة؟ تذكّر أن عيون الغزلان أيضاً تنطق بهذه السّكينة الخفيّة عندما تقترب المدْيَة من نحرها. عين الفتاة الآن على المدية أيضاً.

انحرفا يساراً، ولكنّهما لم ينضّما لتجمّع الأعيان. توقفا على بعد خطوات من خليط الدّهماء.

بدأت الشعائر فجأة.

ارتفعت راية بيضاء فوق رؤوس الأعيان. لوّح بها رجل بدين، يبدو من هذه المسافة في العقد الخامس. يتدثّر بعباءة باهتة كثيفة لا تتناسب مع فصل الصيف. قال التّاجر:

- إنّه القاضي يعطي إشارة البدء.

إندفع الصبيان وتخاطفوا قطع الحجارة من جوال مثبَّت على ظهر الحمار. هَرَعوا إلى المسافة الوسطى. بدأوا يرشقون الفتاة بالحجارة. بعد لحظات تصاعد هتاف من خليط الدّهماء. تراكض الرعاع وهم يتصايحون كأنّهم يهرعون لملاقاة الغزاة. مرّوا بجوارهما فرأى الزعيم جنوناً في عيون البعض، ولعاباً يسيل من أفواه الكثيرين. توقّفوا في المواجهة وأمطروا الفتاة بالحجارة. ولكن الفتاة لم تعرهم اهتماماً.

كانت تنتصب بقامتها المكابرة. تراقب ملكوت الأفق الصحراوي حيث مدّ السراب لساناً لعوباً غامضاً. اللسان الخالد الذي يخاطب العابرين. يقول للرجل بلغة الصحراء والمجهول: «تعال وسآخذك إلى الخلاص. تعال معي إلى «واو». هناك سيختفي الشرّ ولن تتعذّب بعد اليوم أبداً». في أذنيها غنّى رسول آخر لحنه السّماوي. لم تسمع وعيد الرعاع، ولا ضجيج الصبيان، ولا سِباب الحاقدين المتعطشين لإنزال الأذى. سمعت أغنية السكون الصحراوي. إرتفع الموّال الإلهي الذي لا يسمعه إلاّ الموعودون بالفردوس والعزلة والخلاص. موّال فاجع ولكنه إلهي. وربما إلهي لأنه فاجع. لن يكون أي شيء إلهيّاً إذا لم يكن فاجعاً. المقدّس دائماً حزين وفاجع. الحَرَم دائماً كئيب. الحزن باب الجنّة. الفجيعة طريق الفردوس والخلاص الأبدي.

استمرّ الجسد ينزف بالدّم، واستمرّ السكون يتغنّى بالموّال الإلهي الفاجع، المقدّس. استشرس الرّعاع وازداد جنون الدهماء الرحوش برؤية الدّم. الوحوش تستشرس عندما تشتم رائحة الدّم. إزداد حماس القَتَلة فارتفعت نبرة الموّال. إزدادت النبرة عمقاً، وحزناً، وجمالاً. ما أجمل المواويل الإلهيّة. على النغم رقصت الحوريات بأجسام من ضوء. بغلالات منسوجة أيضاً من

ضوء. بدأت أجسام الضوء تتبدّى في الضوء. عرفت أنها قطعت شوطاً طويلاً في الطريق إلى «واو». ابتسمت. فهاجت الجموع بالاستنكار والفَزَع. صاح أكثر من صوت:

- إنظروا! إنها تبتسم. إنّها شيطان. ألَمْ نقلْ إنّها إبليس الرّجيم؟ إبليس. طهُروا الواحة! إقتلوا إبليس!

انهالت الحجارة على الجسد المكابر المغسول بالدّم. ولكن القامة ظلّت منتصبة، ترنو إلى الأفق الصحراوي الرحيم. الأفق يلوِّح بالوعد. بالأمل. بالسراب. والسكون المقدّس يعزف ألحانه الإلهيَّة الشجيّة. فترقص الحوريات في غلالات الضّوء. قطعت مشواراً طويلاً في طريق الخلاص.

ولكن كيف عادت الحورية المكابرة من رحلة الفردوس لتنقضَّ على مخلوق بائس مثل التاجر؟

ما لاحظه الجميع أنّها ظلّت تبتسم طوال الطقوس الوحشيّة. الزعيم أيضاً تابع إبتسامتها الخفيّة بذهول... وكلما ازدادت وحشية الرعاع في الرَّجم كلما اتسعت إبتسامتها وعلا شفتيها الاستخفاف. وفجأةً تمرَّدت. إختفت ابتسامة التسامح وقفز في عينيها الحقد. إنتزعت رأسها من جلاّديها المَرَدة فتبقّت خصلات من شعرها مشدودة إلى طرف العمود الوحشي. نزَّ الدّم من رأسها أيضاً. إعترضها الهمج ولكنها أفلتت من أيديهم. وثبت في قفزات هائلة وهجمت على التاجر. صرَعته على الأرض وخنقته بيدين داميتين. مزّقت الحجارة ثوبها عن جسمها فتدلّى ثديها الريّان. تجمهر الهمج فوقها وانتزعوها من رقبة التاجر الشّقي. استعان بالزعيم ليقف على قدميه. رأى ثيابه الملوّثة بدم الضحيّة فأصابه الفزع.

أمّا الفتاة فاستسلمت للسكون الخفي، ورحلت مع الموّال الإلهي إلى الخلاص.

(٥)

تقدّم المَرَدةُ وغطّوا الجسد بلحافٍ ناصع. شرب من الدم فتخلّلته بقع قانية. بدأت الجماهير تتفرَّق وتنصرف. في طريق العودة تقابل آدّه مع السّردوك الذي لم يره منذ شيّعه في طريقه إلى مكّة منذ سنوات. تهيَّأ لمعانقته ولكنه أحجم فجأة. تذكّر حديث التاجر عندما قال إن أب الفتاة اسمه السردوك أيضاً. فهل يعقل أن يكون السّردوك الرجل الفاضل الذي يستمد أصوله من الأشراف وحشاً يحاول الإعتداء على شرف إبنته، ثم يرمي بها للهمج كي يرجموها أمامه؟ صافحه السّردوك بوجه شاحب. طأطأ رأسه وهمهم بكلام غير مفهوم قبل أن ينصرف.

إلتفت الزعيم إلى صديقه التاجر. في نظرته امتزجت الدهشة بالاستنكار. تكلّم بغضب:

- هل تصدِّق أنّي أعرف هذا الرّجل؟ هل تصدّق أنّه شريف وفاضل ويذهب إلى بيت الله كل عام؟ هل تصدِّق أنّي شيَّعته منذ سنتين في طريقه إلى مكّة للمرّة الواحدة والعشرين؟ أنا لا أفهم. الحق أني لا أفهم. عندما حدّثتني عنه ظننت أنك تعني سردوكاً آخر. أنا لا أصدق...

وقف حائراً. أُسدل التاجر طرف العمامة على وجهه وأخفى ضحكة. وجد الزعيم نفسه يركض خلف الرجل. إعترض طريقه فتوقّف السردوك. كان الزعيم يلهث. غمغم:

- ظننتك شريفاً، يا سردوك النّحس!

قال الرجل بسكينة مدهشة:

- ولا تنابزوا بالألقاب!

ولكن آدّه إعترض:

- لا تحتكم إلى القرآن. لن تخدعني بعد اليوم. أنت شريف مزيَّف. كم

شريفاً مزيّفاً في الصحراء يا تُرى؟ كم شيطاناً في الصحراء يتستّر بالقرآن؟ كَمْ فاجراً يلبس ثياب الأشراف؟

تمتم السردوك:

ـ أنت تظلمني..

استنكر آدّه:

ـ أظلمك؟ تعتدي على ابنتك وتقول إنّي أظلمك؟

ـ هذا افتراء. نالتِ الجزء على فريتها. ولعنة اللّه حلّت عليها منذ إفترت على أبيها... إنّها ليست ابنتي...

قاطعه الزعيم:

ـ إنتظر. لا تحاول أن تخدعني كما خدعت الأعيان وجَمْع الدهماء. أملك البرهان الذي لا يأتيه الباطل. قمت بالإعتداء عليها، وعندما أجبرها الأعيان الدهاة على التراجع وأخبروها بما ينتظرك جزاء فعلك القبيح سحبت الإتّهام إشفاقاً عليك انتهزت الفرصة كأي وغدٍ وتبرّأت منها. سلّمتها للهمج جزاء إنقاذها لرقبتك. ولكن انتظرْ. سوف أقطع رقبتك بسيفي. أقسم أني سأضرب رقبتك...

استنجد الرجل بالمارّة:

ـ إشهدوا يا جماعة الخير. هذا الرجل يهدّدني بالقتل. رجل لا أعرفه ولم أره في حياتي يهدّدني بالقتل. إشهدوا يا جماعة...

تجمّع الفضوليون العائدون من مراسم الرجم. دافع آدّه عن نفسه:

ـ هذا الزّنديق خدعني. زارني في الصحراء مراراً في طريقه إلى مكّة. إدّعى أنه رجل فاضل ينتمي إلى سلالة الأشراف. ولكن.. ولكنه اعتدى على ابنته ولديّ الدليل الذي لا يأتيه الباطل...

تقاطر المزيد من الفضوليين. كَبُرَتْ الزحمة. تحلّق حولهما الدّهماء. صاح أحد الفضوليين:

ـ عن أي دليلٍ تتحدّث؟ أين الدّليل؟

التفت الزّعيم إلى صديقه. بحث عن التاجر. فتّش بين الجمع. إختفى التاجر طار رفيقه. تبدّد الشاهد الوحيد. ولكن متى انسحب؟ أين يمكن أن يختفي؟ لقد سار بجواره طوال الطريق. وقف إلى جانبه طوال الوقت. فمتى تلاشى؟ متى استغفله؟

تساءل بذهول:

ـ أين الزرقان؟ ألَمْ يرَ أحدكم موسى الزرقان؟

سأله رجل بدين:

ـ عن أي زرقان تتحدّث؟

أوضح الزّعيم:

ـ موسى الزرقان. من أشهر تجار مرزق. صديقي موسى الزرقان.

ضحك البدين. ضحك السردوك أيضاً. جلجل الجَمْعُ بالضحكات. توقّف الرجل البدين عن الضّحك. قال باستفزاز:

ـ هل أنت معتوه؟ كيف تجرؤ على إتّهام الخلق بالباطل وتستشهد بالأموات؟

مسح الزعيم العرق. غمغم بالسؤال:

ـ بالأموات؟

أجاب الرّجل البدين؟

ـ نعم. بالأموات. لقد توفي موسى الزرقان منذ ثلاث سنوات مطعوناً بحربة مسمومة في كانو.

هتف آدّه:

ـ ولكنّه جالسني في بيته. شربنا الشاي، ورافقني إلى الرجم. لقد هجمت عليه الفتاة أمامكم. ألَمْ تروا الفتاة المسكينة وهي تهجم عليه وتخنقه بيديها؟

عَلَتْ ضحكات الجَمْع. صاح أكثر من صوت:

ـ إنّه معتوه. ممسوس. سمّوا بإسم اللّه الرحمن الرحيم.

بسمل أكثر من صوت. مال الرجل البدين على السردوك. همس في إذنه بكلام. ضحكا على أثره وانصرفا. انصرف الجمع نحو الأحراش.

وجد نفسه يقف وحيداً في الخلاء.

قبّلت الشمس الأفق، وركعت تؤدّي شعائر الصّلاة.

(٦)

ذهب إلى بيت الزرقان.

عندما وصل قطعت العتمة مشواراً في زحفها على الواحة. على بيت الزرقان أيضاً نزلت العتمة. في الشّمال، ناحية القلعة العثمانية، سمع كلباً ينبح.

بدا البيت الطيني كئيباً، وحيداً، موحشاً. كأنّه مهجور حقّاً. يجاور أحراش النّخيل. ويبعد عن البيوت الطينيّة الأخرى مسافة لا تقلّ عن ثلاثمائة خطوة. دار حول البيت. تفقّد الجدار الشرقي فوجد رماد العشيّة مغموراً بكوم الرمل. جلستها في العشيّة لم تكن وهماً. هنا إحتسى الشاي مع صديقه القديم فكيف تجاسر الدهماء وشكّكوا في قواه العقليّة؟ أزاح كوم الرمل وتحسّس الرماد. كان بارداً. لا يهم. المهم وجود الرماد. وجود آثار النار أعاد له الثقة في قواه العقليّة. ولكن أين ذهب الزرقان؟ وهل صحيح أنه مات منذ ثلاث سنوات مقتولاً؟ إذا كان إدّعاء الأوغاد صحيحاً فكيف جالسه وخالطه وشاركه الفرجة على الطقوس الوحشيّة المشؤومة؟ لقد تعرّض أمامهم لإعتداء الضحيّة قصاصاً له على جبنه ورفضه الزواج منها. لقد إنتزعوه من بين يديها بأنفسهم فكيف عادوا وأنكروا بعدما اختفى؟ أم أنّهم خطفوه وقتلوه خشية ان يفشي السرّ، ثم إدّعوا أنّه مات مقتولاً بحربة مسمومة منذ ثلاث سنوات؟ تخلّصوا منه كشاهد وحيد. كلّهم شركاء في الجريمة الواحة كلها اشتركت في قتل المسكينة. الواحة كلها مجرمة. وها هي تختطف الزرقان وتدّعي أنه مات لتشكّكه في قواه العقليّة.

في الجوار، من جهة الأحراش، إنطلقت هأهأة مشبوهة. هأهأة طويلة، مكتومة. نفس الهأهأة القديمة التي سمعها من الشبح اللّعين. التفت نحو الأحراش. سكتت الجنادب فجأة. خُيِّل له أنّه سمع هسيساً في دعل النّخل. ولكنه لم يبصر أحداً. اشتدّت العتمة فحجبت الرؤية. بعد لحظات أتى الصّوت واضحاً:

- ألم أقل لك: «لا تصدّقه».

التفت ناحية الصوت فلم ير أحداً. أحسّ بقشعريرة. تحسّس مقبض السيف. هتف:

- مَنْ؟

سمع الهأهأة ردًّا على السؤال. عاد يسأل بغضب:

- هل أنت الشبح؟

لا جواب. صاح مرّة أخرى:

- هل تهزأ بي؟ اخرج إنْ كنت رجلاً.

ردّ الصوت في الظلمة:

- هيء - هيء - هيء - هيء.

هدّده الزعيم:

- هل هذا وقت المزاح؟ لماذا لا تظهر إنْ كنت رجلاً.

- هيء - هيء - هيء - هيء.

- حسناً. لقد صدّقتك. الرجل لم يكن شريفاً ولا فاضلاً. الرجل مزيّف حقّاً، بل ومجرم أيضاً. أنت على حق. إنّه مجرم. ماذا أردت أن تقول بذلك؟ هل أردت أن تختبر غشامتي؟ حسناً. أنا غشيم. أنا أعترف بأنّي غشيم. أم... أم أنّك..

سكت الزعيم. كان يلهث ويداعب مقبض السيف ويتدفق بالكلام. وجد نفسه يخاطب الظلمات فأحسّ بالخوف والخجل فتوقّف فجأة. ولكنه سمع الصوت في الأحراش:

ـ لقد أردتك ألّا تصدّق احداً. لا تصدّق أبداً. . . هيء ـ هيء ـ هيء.

احتج الزعيم:

ـ كيف تريدني ألّا أصدّق احداً؟ هل أعيش بين الناس ولا أصدّق الناس؟ ألَا ترى أن هذا سلوك مستحيل؟ لا يستطيع أن يعيش بين البشر مَنْ فقد الثقة في البشر. هذه حكمة تعلّمتها من الأسلاف.

ـ وهل تطيق الحياة في الزّيف؟

ـ هل تريدني أن أعتزل؟

ـ أردتك أن تحتكم إلى قاضٍ أقوى من العقل الذي تتباهى به. حسابات العقل تخطىء، ولكن قلبك هو دليلك لكشف الزّيف.

مسح العرق بكم جلبابه. استمرَّ يداعب مقبض السّيف. تقدّم نحو الأحراش خطوة. خاطب الظلمات:

ـ أعرف أنّي لن أفوز في رهان مع شبح. ولكن أجبني عن سؤال واحد: هل رافقتني اليوم إلى الشعائر الوحشيّة؟

ـ لا أنكر الحضور؟

ـ ألَمْ ترَ الزرقان إلى جواري؟

ـ هذا لا يعنيني.

ـ هل مات الزرقان حقًّا؟

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ـ هيء.

ـ أجبني!

ـ . . .

سكت الشّبح. إقتعد الزعيم الأرض. عادت الجنادب تغنّي في الأحراش. تربّع. وضع سيفه في حجره. أحسّ بإعياء. أسند ظهره إلى جدار البيت المهجور وأغفا.

(٧)

في الصباح صمّم أن يلجأ للفقيه.

حدَّثه بقصّته مع الشبح منذ ظهوره لأوّل مرّة حتى لعبته الأخيرة. صمت الفقيه طويلاً ثمّ نهض وأغرقه في عاصفة من بخور كريه الرّائحة. ظلَّ يتمتم بالأيات حتى تعب. جلس وقال:

ـ صاحبك هو الوسواس.

ـ الوسواس؟

ـ . . . الذي يوسوس في صدور الناس. إبليس الرجيم.

تمتم الزعيم:

ـ لعنه اللّه. ولكن. .

قاطعه الفقيه:

ـ وقد تركته يتمكّن منك زمناً طويلاً. طرْده في الوقت الحاضر أصعب من أي وقت مضى. لقد رأيت بنفسك كيف تهيّأ لك في شخص صديقك الزرقان.

وجد الزعيم نفسه يسأل:

ـ ولكن هل مات الزرقان حقّاً؟

حدّق فيه الفقيه بدهشة. ثمّ هزَّ رأسه مؤنّباً. طأطأ آدّه خجلاً فاقترح الفقيه:

ـ سنبدأ الحرب في ليلة الغد.

ـ الحرب؟

ـ وهل طمعت في أن تفوز بالنجاة من الشيطان بدون حرب؟

سكت الزعيم فواصل الفقيه:

ـ لا أخفي عليك؟ هذا يتطلب مالاً كثيراً.

ـ كم تريد؟

ـ ثلاث عشرة ناقة.

ردّد الزّعيم باستنكار وتحسّس مقبض السيف:

ـ ثلاث عشرة ناقة؟

قال الفقيه ببرود الدهاة:

ـ وهل تريد الخلاص من الشيطان الرجيم بثمنٍ بخسٍ؟

اضطرّ أن يقبل الصفقة.

(٨)

خرج من الواحة بثلاثة أحجبة مختلفة الأحجام. طواها بعناية، ودسّها في جلد غزال. علّقها في خيط من الجلد المفتول وصنع منه سواة لقلادة جليلة. وضعها في رقبته وعاد إلى القبيلة.

تدفّق الزّمان..

صاحب هذا الفيض الخالد تبدّلات كثيرة. هبّ القبلي ونقل إلى الصحراء الوسطى مزيداً من الرمال مصمّماً أن ينفّذ نيّته القديمة في إقامة بحر الرّمال العظيم. قعقعت الرّعود فوق قمم الجبال الزّرق فسكت في وديان الحمادة سيولاً كثيرة. عانت صحاري الجنوب من الحدب، وتراجع الماء في آبار أخرى.

حُفرت قبور كثيرة، فآوى إليها صحراويّون من مختلف الأعمار. أطفال ورجال. نساء وعجائز. رُضّع ومعمّرون، فقدّم الفناء برهانه الخالد الذي لا يفرّق بين صغير وكبير، رجل أو إمرأة، طفل رضيع أو مُعمّر تجاوز المائة.

تدفّق الزّمان... فكانت الحياة حاضرة أيضاً. فبكى الأطفال فزعاً وهم ينزلون من حَبْس الأمّهات إلى حَبْسِ الحياة الدنيا، كما بكى من قبلهم أولئك الّذين ذهبوا إلى حَبْس الأرض والزوال. أقيمت أبنية ونُصبت خيم في المنتجعات بعدد المقابر التي حُفرت. بل زاد عدد المواليد عن حالات الوفيات فبعث قدر الصحراء رسوله الوباء ليصلح المعادلة ويعدّل الميزان.

تدفّق الزّمان..

وتدفّق معه في الصحراء الباحثون عن الكنوز واللّه و«واو». جاء إلى الصحراء مدّعو الزهد والعفّة وشيوخ الطرق المزيّفون.

جاء إلى القبيلة شيخ الطريقة القادرية، وآلى على نفسه أن يحرّر القبيلة من هرطقات المجوس ويقودها في صراط الحرّيّة والخلاص.

فبأي عقل يستطيع الزعيم آدّه أن يفهم نواياه؟ أي عقل يستطيع أن يميّز الأصيل من المزيّف؟ أي قوّة تستطيع أن ترى الخبث المخبّأ في نفس المخلوق الإنساني المغلق؟ أي سرّ يستطيع أن يكشف سرّه؟

لقد نسي الزّعيم وصيّة «الشبح» العابرة عن سرِّ القلب فخدعه شيخ الطريقة في المرّة الأولى كما خدعه السلطان أناي في المرّة الثانية.

(٩)

بطُل مفعول أحجبة الفقيه بالتّقادم فزاره الشبح في منفاه الثّاني بالحمادة.

أيقظه في ليلة صحراوية توّجها البدر، وهبّ فيها النسيم البحري. أيقظته الهأهأة الماكرة، القديمة. لم تكن هأهأة تماماً، ولكنّها تطوّرت وأدخل عليها تعديلاً خشناً فأصبحت قهقهة مُنكرة. ويبدو أن تدفق الزمان أثّر في أهل الخفاء أيضاً فأصابت الشبح بالتّعب والشيخوخة.

نهض على مرفقيه وأزاح اللّثام عن عينيه. بسمل وقرأ آية الكرسي. ولكن القهقهة المنكرة، الشّامتة، لم تتوقف. تحسّس الأحجبة التي اشتراها بأعلى الأسعار فسمع الشبح يهزأ:

ـ هل ظننت أنّك تستطيع أن تفزعني بهذه اللّعبة البلهاء؟ يا لك من طفل! أنت طفل حقّاً. هق ـ هق ـ هق ـ هق...

هقهق طويلاً. ثم.. سكت. سكت طويلاً قبل أن يتبدّى. ظهر في العراء بقامة ماردة. يرتدي لباساً ناصعاً، فاخراً. على عمامته المهيبة استقرّت قطعة «تجولموست» زرقاء. فوق العمامة رأى تميمة مجوسيّة مخيفة. و... على

الصدر تتدلّى تمائم أخرى. إعتدل في جلسته. صرخ:

ـ هل أنت مجوسي؟

لم يجب. تربّع على الأرض. تناول عوداً وشرع يحرث به التراب كما يفعل أعيان القبيلة. إنشغل الزّعيم بعدِّ التّمائم المعلّقة على صدر المجوسي فاكتشف أنّها ثلاث تمائم أيضاً. ثم تذكَّر فجأة أنه يضع على رأسه تميمة قديمة تلقّاها هديّة من عرّاف من كانو. ثم... ثم تذكّر أيضاً أنه يرتدي نفس اللّباس. العمامة المهيبة، والقفطان الفضفاض. استنكر:

ـ هل تقلّدني؟ لماذا تقلّدني؟

لم يجب فواصل آدّه:

ـ ها أنت تتبعني منذ عشرين عاماً فماذا تريد؟ مَنْ أنت؟

ـ هق ـ هق ـ هق... أنا؟

ـ ...

أنا أنت. نعم. أنا هو أنت.

هتف الزعيم بعجب:

ـ أنا أنت؟

ـ لو كنت حكيماً حقًّا لفهمت من زمان. منذ أول يوم.

ـ ماذا تقول؟

ـ ولكنّك لست حكيماً. خدعوك فقالوا لك أنّك حكيم، وتستطيع أن تعيش في الصحراء بالعقل.

أحسّ آدّه بقشعريرة. نفس القشعريرة التي يحسّها عندما يبصر أفعى أو يسمع همهمة الجنّ في الكهوف. قال ببرود الحكماء:

ـ لم يخدعني أحد.

علا صوت الشبح.

ـ بل خدعوك. خدعك العقلاء عندما سلّموك القبيلة وقالوا لك أن

تقودها بالعقل. أنظرْ ماذا فعل العقل بقبيلتك؟ بالأمس سلّمت رقابهم لمغامر كذّاب استغلَّ حنينهم للخلاص وصراط الحريّة. واليوم سلّمتهم في يد مغامر آخر يحلم بأن يبني «واو» بأكياس التّبر. ها أنت ترى ما فعله الاحتكام للعقل بعشيرتك المسكينة.

ـ لست إلهاً. الآلهة وحدها تستطيع أن تقرأ الخبث الذي يجول في رؤوس النّاس.

ـ هذا مبرّر بائس. هذا مبرّر باطل. تستطيع أن تكون إلهاً لو استرشدت بالقلب. لو سلكت صراط القلب. حسابات العقل تخطىء، ولكن قلبك هو دليلك لكشف الزّيف.

ـ أظن أنّي سمعت هذه الجملة قبل اليوم. سمعتها منك في مرزق.

ـ وما الفائدة؟ سمعتها ولكنّك لم تأخذ بها. حذّرتك بالجملة من الشّرور، فلم تصغِ. فماذا كانت النتيجة. طردك شيخ الطريقة المزيّف، وأذلَّك سلطان التّبر في أرضك. وها أنت تتمرَّغ في تراب المنفى.

ـ الإنسان جاء إلى تراب المنفى منذ الميلاد. الحمادة منفاي الجميل، لأنّها أرضي أيضاً.

ـ هق ـ هق ـ هق. حسناً. سأوحي للخبثاء كي ينفوك إلى أرض أبعد من الحمادة في المرّة القادمة.

ـ لا أعرف أرضاً أبعد من الحمادة.

لماذا؟ هناك المدن الممدّدة على شطآن البحار في الشّمال. وهناك أرض الغيلان وراء بحر الظ[illegible] وهناك أرض واق الواق في المجهول.

ـ ذاك لن يكون منفى. إنّه القيامة!

ـ هق ـ هق ـ هق... ستذهب إلى أبعد من القيامة إذا مضيت في تجاهل صوت القلب.

احتجّ الزعيم:

ـ لا تحاول أن تفزعني. أنا أعرف أنّك شبح. وأعرف أنّك زرتني لأن

حجاب الفقيه بُطل بالزّمن. بالتّقادُم. لماذا هربت عندما كان الحجاب مسطَّراً بالمداد الطّازج؟

ـ هق ـ هق ـ هق. أنت تضحكني يا شيخ آدّه. أنت طفل حقًّا إذا كنت تعتقد أن بوسع ذلك الفقيه البائس أن يسطِّر بمداده الطّازج شيئاً يمكن أن يخيفني. لقد خدعك الفقيه كما خدعك شيخ الطريقة قبله. كما خدعك السّلطان أناي. أنت مخدوع إلى الأبد ما ظللت تثق في العقل.

احتدَّ الزعيم:

ـ أنت تكذب. أنت شبح بائس وجبان. سأحتكم إلى سيفي إذا هزأت بي.

ـ هق ـ هق ـ هق. هيّا إحتكم إلى سيفك. إذا كانت كفاءتك في العراك مثل كفاءاتك في التعامل مع الخلق فيجدر بك أن تعتذر عن التحدّي.

ـ لن أعتذر!

ـ هق ـ هق ـ هق!

هبَّ الشبح في سرعة الشبح. لمع سيفه في ضوء القمر كأنّه خيط من برق. جرَّد الزعيم سيفه من غمده وقفز إلى العراك. تعانقت ألسنة النّار. رسمت في الفضاء بروقاً خرافيّة. تقافز في الخلاء خصمان عنيدان. أنصتت الصحراء. تنادى الجنّ وتجمّعوا للفرجة. زغردت مخلوقات النّور التي يسمّيها أهل الصحراء حوريات. جفلت قطعان الغزلان. عوّت الذئاب بالفجيعة. وأيقظ صليل السيوف حتّى الضبَّ الحكيم في بياته الشتوي. أُصيبت شجيرات الرّتم. تساقطت منها الأعراف والأطراف، وأشعل السّلاح الشّره نيراناً في أشجار أخرى.

تواصلت الملحمة. استمرَّ السيفان يتعانقان، ثم يتقاطعان. ينثران الشرار. يتباعدان، ليعودا للالتحام. تابع الكوكب الفضيّ المسحور الصراع بفضول أهل الصحراء. يبتسم بخجل ثم يعود فيكتئب. في الهواء فاحت رائحة الشّياط. همهم الجنّ. تعب المقاتلان. وقفا متواجهين يلهثان. رأى الزّعيم رموزاً مجوسية محصورة على سيف الخصم عند المقبض. رآها بوضوح تحت أشعة الكوكب الصحراوي المسحور. استفزّ خصمه بلغة طفوليّة:

ـ أنت مجوسي. هل أنت مجوسي؟

ـ هق ـ هق ـ هق. وهل يستطيع عقلك الصغير أن يخبرك شيئاً عن المجوس؟ يُحسَن بمَنْ اتخذ من العقل دليلاً أن يصمت ويكفَّ عن السؤال.

احتجّ آدّه:

ـ لست في حاجة للجان حتى تعلّمني متى أسكت ومتى أفتح فمي بالسّؤال.

ـ هق ـ هق ـ هق. . يا لبؤس العقل! ما أشقى أهل العقل!

ـ إذا كنت رجلاً فجرّب أن تصارعني بلا سلاح.

ـ هق ـ هق ـ هق. لا أدَّعي القوّة ولا أفاخر بالجسد، ولكن القلب يكفي. لن يُهزم مَنْ اعتمد على قلبه. في القلب وحده يكمن سرّ القوّة. قبلت هذا التحدّي أيضاً.

ابتسم الكوكب الصّحراوي بغموض. تضاحك نفر من الجنّ. رقصت المخلوقات السريّة بأجساد من ضوء.

بدأت المصارعة.

استمرّت حتّى توارى القمر خجلاً، وربّما تعباً.

(١٠)

نهض بعد طلوع الشّمس بزمن طويل. الضُحى. لثامه وملابسه مبلّلة بالعرق. كان متعباً، محطّماً بالوجع. عجز في البدء أن يحرِّك يديه. تدحرج على الأرض المكسوَّة بالحصى. مرّغ أنفه وعفّر وجنتيه وهو يتقلّب في التراب. كأنّ مارد البارحة قد قيَّد يديه ورجليه بعد أن حطم ضلوعه. كان مارداً في قوة الجن. الآن أيقن أنه جنّ. البارحة إقتنع بهويّة الشبح. عراك الجن وحده يورث العجز. إذا شممت رائحة الجنّ أصابك الوهن والغثيان وتحطَّم رأسك بالصداع. وإذا عاركت هذه المخلوقات الخفيّة ولامستها باللحم قيَّدك

العجز. شرع يقرأ آية الكرسي. قرأها ثلاث مرّات. ثم قرأها معكوسة عملاً بنصيحة فقيه متجوّل إلتقى به في «تـانـزوفت» منـذ سنـوات. ولكن فقهـاء الواحات طعنوا في كفاءة التعويذة وقالوا إنّها بدعة مستعارة من دين المجوس. لتكنْ بدعة مستعارة من دين المجوس أو النصارى أو اليهود أو حتى الشيطان. المهم أن تحرره من أسره. المهم أن يخلِّص يديه ورجليه. تذكَّر ما يفعله الغناء بعقول الشباب. يستولي عليهم الجن فيقعون في الوجد، يقعـون على الأرض جثثاً هامدة. قطعة ميّتة من لحم. بعضهم يـظلُّ ينتفض كحيوان مـذبوح. والبعض يبقى جثّـة. ولا ينقذهم من أسرهم إلاّ المِدْيَة. يهـرع إليهم الأقران ليجرّوا السكين السري على أجسامهم الهامدة فتبعث فيها الحياة. المدية تقتـل الجنّ وتحـرر المجذوب من الأسر. ينهض المصاب بالـوجد ليجـذب ويـرقص ويفرح بتحريك الأعضاء المشلولة.

أفلحت القراءة المعكوسة للآية أن تحرِّر يده اليمنى ورقبته. بحث بعينيـه عن سيفه. رآه مرشوقاً بجـوار رمّة أسقط جنون البارحـة شعرهـا السبط عن رأسها. زحف نحوهـا. جاهـد حتى أمسك بـالسيف من المقبض. جرَّه عـلى رقبته كأنـه ينحر نفســه. ثم مرَّره عـلى جسده كلّه، من الرأس حتى القدم. سحب نفسـاً عميقاً. عـادت له الحيـاة. أحسَّ بالإنهاك الـذي يعقب المرض الطّويل، ولكنه تلذَّذ بالسعادة الغامضة التي تلي المرض الطويل أيضاً.

بعد لحظات استطاع أن يرفع رأسه ويشاهد الأفق الصحراوي وهو يتوالد ويتمدَّد. تكلَّم ببهجة طفولية:

ـ يا ربي، كان مارداً كالجنّ. هل يُصدَّق أنّي صارعت جنيّاً؟

هنّأ نفسـه على النّجاة بصوت مسموع:

ـ الحمد للّه. الحمد للّه.

تفقّد الصحراء فوجد أن العـراء محروث بعـراك الليل. وجـد جرحـاً على معصمه الأيسر. جرح صغير يعلوه دم تيبَّس وامتزج بحبيبـات الرمـل. ولكنه

لم يشعر بالألم. قال لنفسـه: «جراح الجنّ لا تسبِّب الألم أبداً!».

ثم ضحك بصوت مسموع.

(١١)

جاء يوم وجد فيه نفسه يفتح قلبه لعرَّاف عابر نـزل عليه ضيفـاً في طريق عـودته إلى كـانو. حـدَّثه عن الشبح منذ كـان وسواسـاً إلى أن أصبح مـارداً عدوانيًّا بارزه بالسيف وتركه محطَّماً، مشلولاً، فاقد الوعي.

هـرس العرَّاف المهيب حفنـة من التبغ بـين يديـه، ثمَّ ألقى بهـا في فمـه الخالي من الأسنان قبل أن يسأل:

ـ هل تذكر الحوار؟ حدثني: ماذا قال؟

ـ الحق انه قال كلاماً كثيراً لا معنى له.

اعترض كاهن الأدغال بيقين:

ـ لا يمكن أن يكون الكلام بـلا معنى. هناك معنى في كـل كلام. هنـاك معنى في الثرثرة. هناك معنى في الهمهمة. هناك معنى في صوت الرّيح. هنـاك معنى في السكون. في السكوت نفسه. كيف تكون زعيماً على قبيلة صحـراوية وتجهل لغة الصحراء الأولى؟

غمغم الزعيم:

ـ لا أجهل لغة الصحراء، وإن كنت أجهل لغة العرَّافين.

ـ أؤكِّـد لك أنّي لم أنـطق بحرف من هـذه اللّغـة حتى الآن. فتـذكَّـر ولا تضيّع الوقت.

سكت آدّه. طأطأ رأسه وبحث في الذاكرة طويلاً ثم قال بيأس:

ـ الحق أنّي لم أتذكر شيئاً. أذكر شيئاً واحداً: كان قويّاً كالجنّ. يـا ربي ما أقواه. لقد أُعمي عليّ بمجرّد أن احتواني بين يديه.

هبَّ العرّاف:

ـ هل تهزأ بي؟ سألتك أن تتذكّر الحوار ولم أطلب منك أن تصف مارداً أعرفه خيراً منك.

سأل الزعيم بدهشة:

ـ تعرفه؟

ولكن كاهن الأدغال تجاهل السؤال. بصق لعاباً كئيباً وقال بعناد:

ـ حاول أن تتذكّر شيئاً. ولو جملة واحدة. كلمة..

فكّر الزعيم. تذكّر الجملة التي ظنّ طوال الوقت أنّها سبب الخلاف بينه وبين خصمه السري القديم. أزاح اللثام وأفرج عن فمه ليقول:

ـ أظنّه قال مرّة أن حسابات العقل تخطىء، ولكن قلبك هو الدليل لكشف الزيف.

هلّل الكاهن الجليل. وهتف بحماس الزنوج:

ـ ها. هل رأيت؟ هل بوسع مخلوق عاقل أن ينسى إشارة خطيرة كهذه؟ هل في اللغة البشريّة خطاب أوضح من هذه الجملة؟ هل في لغة الصحراء رسالة أكثر ألوهيّة من هذه الرسالة؟

التفت خلفه وبصق التبغ بصوت مسموع. رأى آدّه في عينيه أَلَقاً خفيّاً. فرحاً خفيّاً. الأَلَقُ الذي رآه في عيون المغامرين عندما يكتشفون كنزاً. ولكنْ أليست الحكمة كنز العرّافين؟ أليست الايماءة الإلهيّة حلم الشعراء؟

تكلّم آدّه بخجل:

ـ الحق أنه قال كلاماً كثيراً بهذا المعنى.

ـ بأي معنى؟

ـ عن العقل والقلب و..

ـ وماذا؟

ـ نسيت. نسيت، ولم أعد أذكر غير قوّته الجنونية. قوة الجان.

راقب العرّاف أفق العشيّة. تشتّت السّراب في العراء المفتوح، الفسيح. فوق أسمال السراب المحتضر طار غراب وحيد متجهاً صوب الشمال.

تكلّم العرّاف بالبشارة بصوت الكهوف المجهولة:

ـ هل تريد أن تعرف خصمك؟

تابع الزعيم الغراب المهاجر ولم يجب. فكّ كاهن الأدغال رموز النبوءة:

ـ إنه قرينك!

هتف آدّه:

ـ قريني؟

ـ نعم. قرينك. وقرينك في لغتنا يعني «أنت».

ـ أنا؟

ـ ولا أجد غيرك.

ـ لا افهم. لا أفهم هذه اللغة.

ـ نفسك. إنه نفسك. هل تفهم؟

ـ نفسي؟

ضحك آدّه باستخفاف وقال:

ـ أنت تسخر منّي. كيف تطاردني نفسي عشرين عاماً وتنازلني بالسيف، ثم تحطّم ضلوعي كأيّ جنٍّ؟

قال العرّاف ببرود:

ـ وهل في الأرض مخلوق أقدر من النفس على القيام بهذه الأشياء؟

ضحك الزعيم بصوت عالٍ. أوضح صوت الكهوف:

ـ المخلوق ينفلق إلى نصفين ما لم يجد نفسه. ولن يجد نفسه إلّا في السكينة.

ـ وما علاقة النّفس والسكينة بالعقل والقلب اللذين تغنّى بهما القرين الذي تتحدّث عنه؟

ـ أنت تحيّرني. لا أستغرب أن تجد نفسك في المنفى مرّتين ما دمت تستخدم هذا المنطق الطفولي. أين الزعيم؟ أين الصحراء؟ لم أسمعْ خبرة الزعيم ولم تتكلّم فيك الصحراء. أخشى أن أنازلك بعد قليل كما فعل قرينك

الشجاع. لا أخفي عليك: إنّي أشعر بالتعاطف معه.

سأل آدّه ببلاهة طفوليّة:

ـ لماذا؟

ـ لأنّك أحمق. لا تقل إنّك تركت قبيلتك للأغراب مرتين من باب التسامح وترويض النّفس على الحكمة والإعتدال. لو اهتديت للحياة بالقلب كما أشار عليك شقّك الآخر لما اضطررت أن تدفع التمن. لقد خَدَعك الاسلاف عندما أشاروا عليك أن تقود قبيلتهم بالعقل وحده..

قاطعه الزعيم مستنكراً.

ـ الأسلاف لا يخطئون أبداً. إحترسْ!

ولكن الكاهن تجاهل الوعيد ومضى ينكّل بسلطان العقل:

ـ العقل لا يقود إلى الخلاص. بل إنه هدّام. هدّام إذا لم يستنرْ بمشعل القلب.

ـ تتكلّم كأي درويش.

ـ ولِمَ لا؟ كلّنا دراويش. أنت أيضاً درويش.

ـ أنا؟

قال العراف بيقين:

ـ نعم. أنت. ولو لم تكن درويشاً لما انفلقت إلى نصفين لتجد نفسك مُطارَداً بنصفك الآخر طوال عشرين عاماً. هيء ـ هيء ـ هيء..

ـ أنت تستهزىء. هل تستهزىء؟

ـ لم أستهزىء يوماً. العرّاف لا يعرف الاستهزاء. تعلَّم أن تنصت عندما تتكلّم النبوءة على لسان العرّاف. إستمعْ إلى قلبك وستعرف الزيف. وستجد الخلاص، أيّها الدرويش. هيء ـ هيء ـ هيء..

ـ هل تصرُّ أنّي درويش؟

ـ نعم. أنت درويش. وستشقى كثيراً إذا لم تتعلّم أنْ تنصت للنبوءة، ولصوت القلب..

(١٢)

مكث الزعيم طويلاً في منفاه بالحمادة.

تجوّل في العراء المكشوف. صعد الروابي المحروقة بنار الشمس ونار البراكين. زار الجبال الزرق وتأمل العمامات الزرقاء. ركب جمله وجاء بِقُرَبِ الماء من آبار الوديان في النواحي السفليّة. رقد على ظهره وراقب الكوكب الصحراوي المسحور. وفي إحدى الليالي همس الكوكب الفضيّ بسرِّ القلب، وسرّ صداقته بالدرويش.

في الصّباح حرقه الحنين. حنين للقبيلة، وحنين لمعانقة الدرويش.

ليماسول (قبرص)

١٩٩١/٨/١م

إله الحجر

(١)

قامته كانت تستفزّ الأقران. يعيّرونه بـ«القَزَمْ» ويرجمونـه بالحجـارة. فكان يجمـع الحجارة في ثـوبه الفضفـاض ليبني بها مـدناً. تصيبـه بعض الحجارة، فتنبت في وجهه الكدمات، وتنزف أطرافه بالجراح والدّم، ولكنه لم يبالِ يوماً. يمسح الدم والدموع، ويتحسّس الكدمـات. ينحني على القـطع السحريّـة المتفاوتـة الأحجام والأشكال التي تلقّاها من الأقران الأشقياء مقابل قامته القصـيرة التي صنعت له نَسَباً لم يعرفه بقبائل الأقزام. يملأ حجره ويذهب إلى العراء الرّمـلي وراء المنتجع. يسجد على الأرض ويشرع في البناء. لا يبدأ في العمل إلاّ بعد أن يضع الخطّة ويتأمّل الأدوات. فالمدينـة لا بدَّ أن تقـوم في عراء فسيـح، في قلب العراء الفسيح، بجـوار المرتفـع، أو الجبل الـذي يرفـع رأساً جليـلاً إلى السماء، وحجارة البناء لا بدَّ أن تكون مناسبة أيضاً. هنـاك الحجر المستـدير، وآخـر مستطيـل، وثالث مثلث، ورابـع مسنّن الأطـراف، وخـامس مصقـول ولّماع، وسادس يومض بإغراء تحت أشعة الشمس، وسابع معتم ولكنه يوحي بجمال خفيّ، وثامن يحضن سرّاً، كأنّه يخفي كنزاً تحت قناع صارم كئيب.

هذه أنواع الحجارة..

لا. ليست هذه أنواع الحجارة كلّها. هناك حجارة أخرى تخفي سرّاً أكبر من الكنـز، وأكثر جـلالاً من الجمال. هنـاك الحجارة السـريّة التي تخفي اللّه.

كان إذا رجمه الأقران بحجر من هذا النوع، يرفع الحجر إلى شفتيه، يقبّله بخشوع، ثم يبكي بالدموع قبل أن يدسّه في جيبه. يهرع إلى البيت ولا يعبأ بالنزيف الدموي على وجهه. يدخل الخباء يختبئ في الزاوية، في العتمة، يخرج الكنز الإلهي. يتأمّله طويلاً وهو يمسح دموعه بين حين وآخر. وقد ينشج بصوت مسموع إذا كان الحجر موحياً وغامضاً ومأوى لآلهته السرّية. وهو لا يستعمل هذا النوع من الحجارة في البنيان. بل يدسّه في الخريج، ولا يخرجه ويضعه في جيبه إلّا إذا اضطرّته الظروف عندما ترسله أمّه في الليل إلى بيت الجيران ليستعير حفنة الملح أو زند النار. يتحسّس الحجر في جيبه فيشعر بالأمان. يهرب الجنّ. تتبدّد الظلمات، وينير له إله الحجر طريقاً في ليل الصحراء البهيم. قبل أن يكتشف الحجارة المقدّسة رأى الهول على يد أهل الخفاء. يتحلّقون حوله كمجرد أن يخرج إلى العراء في ليالي الظلمات. يفتحون أفواهاً كريهة يسيل منها دم أسود غزير. يقطعون رؤوسهم بأنفسهم ليرعبوه. أو يمشون رأساً على عقب، أو يمدّون قاماتهم في الفضاء حتى تغيب في السماء. يسقط قلبه إلى بطنه، ويزحف البرد على صدره، ويصيبه الدّوار. وكم من مرّة عجز في الوصول إلى الخباء، وأغمي عليه في العراء قبل أن يقضي حاجته.

وراق للمردة مرّة أن يسخروا منه فأحاطوا به في حلقة وطفقوا يدغدغونه حتى كاد يموت من فرط الضحك، ولو لم يُغمى عليه لمات بالضحك.

ولكنه وجد التميمة في الحجارة.

وجدها بنفسه. لم يعطها له فقيه، ولم ينلها من يدي عرّاف، ولكنه إكتشفها بنفسه. الحجر الإلهي طود الجنّ. وأنزل في قلبه الاطمئنان.

في البداية رأى أن استعمال مثل هذه الحجارة في بناء بيوته الحجرية قد يغضب الآلهة الخفيّة، وخشي أن تبطل التعويذة فتتخلّ عنه للجنّ، ولكنه تجاسر مرّة وبنى بيتاً حجرياً في الوادي، وصنع للبنيان عمودا جليلاً يشبه عمود الخباء المركزي، ووضع الحجر السري أساساً للعمود المرفوع في قلب

البنيان. ترك البنيان وعاد في الصباح. وجد غزالاً مسحوراً يركن بجوار العمود. وعندما أبصره وقف على قوائمه. ركع برأسه على الأرض، ثم رفع إليه نظرة طويلة غامضة. ولم يجفل ويتراجع إلّا بعد أن تقدّم نحوه خطوات. هرول مسافة قصيرة ثم توقّف والتفت إليه. في عينيه الكحلاوين رأى آخموك السّر والوداعة والحزن. حدّق لحظات أخرى ثم ركض حتى اختفى في انعطافة الوادي.

حدّث أمّه فلم تصدّقه. ردّدها للأقران فهزأوا به ورجموه بالحجارة. تساءل كثيراً ما الذي يجعل مخلوقاً هيّابا كالغزال أن يطمئن لبنيان أقامه الإنسان. عرف أن السّر في الحجر. الحجر السرّي هو الذي جذبها. لولا الحجر الإلهي لما جرؤ مخلوق برّي كالغزال على الاقتراب من وطن الإنس. من بنيان ممسوس بيد الإنس. لأن العجائز تؤكّد أن رائحة الإنس في خياشيم الغزلان كرائحة الجنّ في أنف الإنس، تصيب بالدّوار والصّداع والحمّى وقد تؤدّي إلى الموت. ولكن اللّه في الحجر هو الذي جذب الغزال وأعطاه الإحساس بالأمان. ولكن ما سرّ الحجارة المقدّسة؟ ما الذي يميّزها عن غيرها من الحجارة؟ لا يدري تماماً. يقيناً إنه ليس الوميض أو البريق. وليس في الشكل أو التكوين. يعرف شيئاً واحداً. يعرف أنها تخفي سرّاً كبيراً. يعرف بقلبه. تزداد نبضاته ويتدفق بالرهبة والدم. تضيق أنفاسه وترتفع الحرارة في بدنه. يشعر بالرهبة ويعرف أن السرّ في الحجر. يحس بالخوف في البداية. ثم يغيب في سكون عميق. تعقبه طمأنينة وسكينة. ولا يعرف نفسه لماذا سمّى هذا النّوع من الحجارة حجارة إلهية. رأته أمه مرّة ينحني ويقبّل حجراً إلهيّاً فتوعدته بالسؤال: «هل تقبّل الحجارة؟ هل تعبد الحجر؟ يا ويلك من الفقيه! حذار أن يراك الفقيه». ولكن الفقيه لم يره يقبّل حجراً وإنْ عرف دائماً ولعه بالأحجار. كان يقترب منه في أوقات الدرس. يطرد الذباب عن وجهه بالمنشّة البيضاء. يبتسم في وجهه ويسأل: «هل وجدت حجراً غريباً؟». يتضاحك الصبية فينتهرهم بعبوس ويلوّح لهم بسبابته مهدّداً. ثم ينحني فوقه. يتفقّد

الآيات التي كتبها على لوحه ليقول له هامساً: «ماذا في الصّحراء الكبرى غير الحجارة يا بنيّ؟. اطمئنْ. سوف تجد في هذه الدنيا أكثر أحجار الأرض غرابة. سوف ترى». يبتعد الفقيه الجليل فيسخر منه الأشقياء. يأكلون التمر سرّاً ويرجمونه بحبات النوى في غفلة من الفقيه.

استمرّ خوفه نحو الحجارة الخفيّة. خوف يشبه الخوف الذي يستشعره نحو أهل الخفاء. جاء إلى أمّه وهي تمخض الحليب في صباح أحد الأيام وسألها:

- لماذا أشعر بالخوف من الأحجار السريّة يا أمّي؟

استمرّت تتمايل مع الشكوة إلى اليمين واليسار. قالت دون أن تبتسم:

- السر. الخوف سببه السر.

- وما هو السر يا أمّي؟

تجهمت ملامحها الهادئة. كَسَتها مسحة مفاجئة من الصرامة. في عينيها ومضت دموع:

- السر هو اللّه يا بني!

تابع حركتها الراقصة مع الشكوة وهو يتدفّأ عند الموقد. احترقت مقلتاه بالدموع أيضاً. سأل وهو يدفع إلى النار بالحطب:

- من أين يأتي اللّه في الحجارة؟ لماذا يختار هذه الحجارة ليتخذها مأوى دون غيرها؟

استمرّت الأم ترقص مع شكوة الحليب. تجذب يميناً ويساراً كدراويش القادرية. إختفت الدموع من عينيها ولكنها ظلت تومض بالوهج والبريق. قالت:

- اللّه يأتي إلى الحجارة من كل مكان. من السّماء ومن الأرض. من القبلي ومن قطرات الأمطار الموسميّة. من شعاعات الشمس، ومن نور القمر عندما ينتصف الشهر ويتحوّل بدراً. وهو يختار هذه الحجارة لأنّها كانت أدوات استخدمها الأجداد في حياتهم القديمة. إنّها حجارة مباركة يا ولدي. يكفي أن يكون الحجر مستخدماً في يد الأسلاف كي يتخذه اللّه مأوى ويصبح حجراً كريماً.

سقطت على وجنته اليمنى دمعة كبيرة. غمغم بذهول:

- سأبوح لك بسرّي: لقد احتميت بالحجر السرّي من الجنّ. لقد طرد قبائل الخفاء ولم أعد أخشى الخروج في الليل لقضاء حاجتي. هل تصدّقين أنّه أفزع الجنّ؟

إبتسمت الأمُ بغموض. قالت بصوت كالهمس:

- طبعاً أصدّق. لقد رأيتك تدسُّ الحجر في جيبك قبل الخروج، ورأيت الجنّ تهرب من الحجر المبارك وتختفي في الخلاء.

قال ببهجة طفولية:

- أنا سعيد لأنّك رأيت ذلك بنفسك. ظننت أنّه سرّي وحدي.

داعبته دون أن تتوقف عن حركة المجاذيب:

- لا سرّ يخفى عن الأم يا بنيّ.

(٢)

جمّع عدداً كبيراً من الأحجار السريّة. ولكن الحجر الأخير اختلف عن كل الأحجار. خرج إلى الرابية الشماليّة قبيل المغيب. في سفح الرابية وجد كوماً كبيراً من الحجارة. أحسَّ بجلال غامض. نفس الجلال الذي يستولي عليه عندما يعثر على حجارته السرية. تفقّد الحجارة فغمرته قشعريرة. طبقة من الشوْك نبتت بين جسمه وملابسه. امتلأ الصدر بالجلال. فاض القلب بالجلال والخوف. كبر الخوف. ولكنه خوف ممزوج بسعادة غريبة كأنّ مردة الجنّ اجتمعت كلّها واقترحت أن تأخذه في رحلة حقيقية إلى المجهول. لم

يتخلّ عن الحجر الرهيب. كان مستديراً، أملساً، موسوماً برموز سريّة حمراء في قلبه. قطعة خفيّة من الصّوان العجيب. تحرّكت الرموز السريّة الحمراء وتكلّمت بلغة لم يفهمها، لغة غامضة، ولكنها جليلة. اشتعل الحجر بالنّار وحرق أصابعه الصغيرة. ركع على ركبتيه ولم يتخلّ عن الحجر، عن الكنز. عن السر. تنادى المردة وأخذوه في رحلة حقيقيّة مجهولة إلى المجهول. استمرّت الرحلة دهراً طويلاً، طويلاً طويلاً، عمراً بكامله، أعماراً بكاملها. رأى أعاجيب عجزت لغته أن تحكيها. وكلّما تذكّر تلك المعجزة بكى. حتى بعد أن كبر وأصبح رجلاً كاملاً يلفُّ وجهه باللّثام كان يبكي عندما يتذكّر تلك اللحظة الخالدة. يبكي في حضور الرّجال أو حضور النساء بلا خجل.

ثم أعاده الجنّ إلى الرابية في ذلك المساء فوجد نفسه راكعاً يبكي بجوار كوم الحجارة. كان يمسك بالحجر. يضمّه إلى صدره. يحتضنه بين يديه كأنّه يخاف أن يهرب منه ويتركه وحيداً في الصحراء.

ثم استطاع أن يقف على قدميه. ثم وجد نفسه يجري. يجري. ويجري. لم يهرع إلى المضارب. لم يركض إلى أمّه ليزفَّ لها البشارة. ولكنه هرب إلى العراء الصحراوي الأبدي. كان يردد بصوت عالٍ: «اللّه. إنّه اللّه. لقد رأيت اللّه!» ويركض في الخلاء الخالد المغمور بفيض الغسق. بلغ وادياً ظامئاً. ركن إلى طلحة عطشى. أمسك جذعها بيد، ويده الأخرى تضم الحجر الرهيب إلى صدره. و. . . بدأ يبكي. بكى حتّى حلَّ الليل وطلع القمر.

عاد إلى البيت.

لم ينم.

في الصّباح ذهب إلى الفقيه في بيته.

وقف في المدخل وسأل وهو يرتجف:

ـ هل يستطيع سيّدي أن يجيبني على سؤال؟

ابتسم الرجل الجليل. تلك الابتسامة الغامضة التي تمسح الهمَّ وتصنع السعادة. أخذه من يده وأجلسه بجواره حول موقد النار. إفتضّ بكارة الجمر بمسعر نحيل. وضع إناء الشاي فوق الجمر المنتهك. لفّه بعباءته وقال:

ـ والآن تستطيع أن تسأل ما تشاء. على الولد المجتهد أن يحمي بدنه من البرد قبل أن يلقي بالسؤال.

ولكن أخوك الصغير استمرَّ يرتجف. ارتجف برغم دفء النار ودفء العباءة. قال بعينين دامعتين:

ـ هل يتجلّى اللّه في الحجر يا سيدي؟

سكت الفقيه طويلاً. لم يهرش النار بالمسعر النحيل، لم يداعب لحيته البيضاء. لم يبتسم أيضاً. ظلّ يحدّق في النار. في النهاية قال:

ـ نعم. إعْلم أن اللّه يتجلّى في كل شيء. حتى في الحجر.

هيمن صمت آخر. جرحت توجعات الحطب في النار جلال الصّمت. تمتم أخوك الصغير:

ـ لقد رأيته يا سيدي. شيء لا يوصف. السر أكبر من أن يوصف يا سيّدي.

تمتم وراءه الفقيه.

ـ لست مضطرًّا أن تبوح بسرك لأحد يا ولدي. لا تخبر أحداً بما رأيت. هل فهمت؟

فهم. وأحبَّ الفقيه في تلك اللحظة. احبَّه كما لم يحب أحداً. احبّه كما يحب أمّه، وربّما أكثر مما يحب امّه نفسها. الفقيه الجليل جاء إلى الصحراء مطروداً من الواحات الشماليّة. ويُقال إنّه هجر الواحات بسبب خلافات حول الشريعة والتفسير نشبت بينه وبين فقهاء السُّنّه اتّهم بعدها بالزندقة. فاضطرُّ أن يهاجر في صحراء اللّه الواسعة ويلتحق بقبائل الصحراء. يعلّم الأولاد القرآن ومبادىء الدين. ولكن أهل المعرفة يطلقون على الفقيه لقباً آخر. كان

الكبار يقولون إنه شيخ الطريقة القادريّة. ولكن التلاميذ لم يفهموا معنى لا لـ «الشيخ» ولا لـ «الطريقة» ولا لـ «القادريّة»، كما لم يفهموا قبلها معنى لتهمة «الزّندقة» التي أخرجته من الواحات ودفعت به إلى الصحراء الوسطى. وقد لاحظ أن شيوخ القبيلة ينادونه بلقب «شيخ». ولم يكن قادراً، وقتها، أن يميّز بين «الفقيه» و«الشيخ». ولم يفهم هذه الأسرار إلّا بعد أن نزح إلى تينبكتو والتحق بالمدرسة القرآنية الملحقة بالجامع القديم.

(٣)

إحتفظ بالحجر الرهيب، ولكن اللّه لم يظهر.

أخرجه من الخريج مراراً، وحمله إلى المراعي. وناجاه في الليالي التي يستولي فيها البدر على الصّحراء. ضمّه إلى صدره ونام على هذه الحال مرّات كثيرة، ولكن اللّه لم يظهر.

قضى ليلة يبكي حسرة على الحجر وحنيناً لرؤية اللّه فقالت له أمّه في الصّباح:

ـ إعلم أن اللّه لا يظهر للإنسان إلّا مرّة واحدة.

حدّق في وجهها الساكن بذهول فأوضحت وهي تستعد للرقص الصباحي مع شكوة الحليب:

ـ لا يظهر مرتين للمخلوق، كما أنّه لا يظهر لكل مخلوق.

فرك عينيه الحمراوين من فرط البكاء الليلي فواصلت الأم:

ـ اختارك فتبدّى لك من بين ملايين المخلوقات فلماذا لا تقنع وتفهم وتكتم السر كما يليق بالأخيار؟

قال بعناد الأولاد:

ـ ولكنّي أريد أن أراه.

قالت بصبر الحكماء:

ـ ومَنْ منا لا يريد أن يراه؟

اشتعلت في صدره اللهفة واحترق صدره بالحنين إلى الرحلة الحقيقية المجهولة. الرحلة التي استمرّت عمراً كاملاً ورأى فيها العجب بعينيه. غمغم: «أريد أن أراه» قبل أن يرفع صوته بنواح فاجع.

(٤)

توطّدت علاقته بالحجارة.

كانت لهفته لاكتشاف اللّه، حنينه لرحلة المعجزة والمجهول، والكبرياء الغامض الذي يراه في هذه «الكائنات» هو ما سحره وجعله لا يرى في الصحراء العظمى شيئاً غير الحجارة. وقد لاحظ أن ترتيب هذه القطع الخفيّة وتنسيقها يبعث فيها حياة أخرى. يجعلها تعيش كالناس وتفرح ككل المخلوقات الصحراوية. كان يقضي النهار في المراعي يداعبها ويرتّبها ويستنطقها ويبحث في أشكالها وهيئاتها عن سرّها. يقيم بها البيوت والأسوار والتماثيل ليعطيها السعادة ويعيد لها الحياة. كان على يقين أن هذه القطع الحزينة التي لا يرى فيها أبناء القبيلة سوى الجثث الصّماء، هي «كائنات» نبيلة ومرحة حرقتها الشمس وخذلها الزمان. انكفأت على نفسها واختارت العزلة الخالدة. رأى هذه العزلة الجليلة دائماً. رأى اللغة السريّة الكئيبة دائماً. وإلّا ما هذه القوّة التي تنطق بها الحجارة دون أن تحتاج إلى لغة إنْ لم تكن قوّة اللّه؟ ما هذا الكبرياء إنْ لم يكن كبرياء السماء؟ ما هذا الجلال الذي يلقيه في صدر المخلوق إنْ لم يكن سرًّا مستعاراً من جلال الخالق؟ مَنْ قال إن اللّه لا يسكن إلّا في صدور المؤمنين؟ كل العقلاء يردّدون هذه التميمة. كل الأقران يردّدون ذلك وراءهم. ولكنه على يقين أن اللّه يفضّل ان يسكن في الحجارة. حجارة الخلاء أكثر نبلاً وطيبة وسكينة ورحمة وجمالاً وأماناً من صدور الخلق. هو على يقين أن الفقيه سيوافقه هذا الرأي. ولكنه على يقين أيضاً أن الفقيه سيهمس له أن يحبس السر في صدره ولا يبوح به لأحد. فهو شعر دائماً بالحيرة

كيف يستطيع الخالق العظيم أن يأمن نفسه في صدور الناس التي تشتعل بالوساوس والرغبات حتى لو كانت مؤمنة. أليس صدر الحجر المسالم أكثر أماناً وسكينة ودفئاً؟ يبتسم ويضحك وهو يعقد المقارنات بين صدور الناس وصدور الحجارة وأيها أجدر بإيواء الآلهة.

تنفست الصحراء الوسطى بالقبلي سنوات كاملة. عمَّ الجفاف وجاء دور الأيام العجاف ليهيمن على الصحراء. يئست القبائل من الرحمة فنزلوا للإقامة في تينبكتو. هناك واصل تعلُّم الفقه وأصول الدين في مدرسة الجامع القديم. ولكن علاقته بالحجارة لم تنقطع عن الخروج من الصّحراء. بل تطوّرت في تينبكتو فوجد نفسه يشارك الخبراء في تشييد البيوت ويتطاول في البنيان وتعمير المدينة. أدهشت موهبته الخبراء القدامى فنال منهم الاهتمام وأذاعوا في تينبكتو خبر براعته في التعامل مع حجارة البناء فوصل أمره قصر السلطان. استعان به في ترميم سور القصر القديم، ثم سور المدينة. ترك المدرسة القرآنية وسخَّر حياته للحجارة نهائيّاً.

كان سعيداً إذْ رأى حجارة الصحراء تتنادى على يديه. تنهض من موتها في العراء لتبدأ الحياة في الصوامع والقلاع والبيوت والجوامع. تشارك الناس حياتهم، تسخر من أعمالهم، تحزن لأحزانهم، ترثي لحالهم، وتفرح معهم عندما يكونون سعداء. كانت تحدِّثهم دائماً، ولا تبخل عليهم بالحكمة والنصيحة ولكنهم لم يسمعوها يوماً. كانت تقول لهم في كل رمشة عين أن الدنيا فانية، والحياة باطلة، وتنصحهم ألَّا يقايضوا وهم الحياة بحقيقة الآلهة، ولكن عبثاً.

رأى آخموك دائماً أن أكثر ما حيَّر الحجارة أن الخلق لا يسمعون نداءها، ولا يريدون أن يفهموا لغتها.

كانت حجارته سعيدة بالبعث والحياة، ولكنَّها شقيَّة لأنها تتحدَّث بلغة بكماء لا يفهمها الناس. وكان آخموك شقيّاً أيضاً لأنه لم يستطيع أن يجعل الناس تفهم لغة الحجارة.

(٥)

لم يخجل في أن يستمع إليها بشغف العشّاق.

لم يخجل أن يخاطبها بلغة العشّاق أيضاً.

لم يخجل أن يقبِّل الحجارة المقدَّسة التي تنقل له خطابات الأسلاف، أو يتلقّى منها ايحاءات اللّه.

فعل ذلك كله أمام جموع البنّائين فلم يضحك أحد، ولم يستنكر أحد. في السنوات الأولى سمع همساً: «إنه مفتون بالحجارة. إنه يعبد الحجر». ولكن السلطان أسكتهم عندما قال: «لن يفلح في رصف الحجارة مَنْ لم يعبد الحجارة». فتركوه ومات الهَمْس في المهد.

ولكن ما أثار البنائين المحترفين هو شيء آخر غير العبادة، وغير العشق. فقد لاحظ أهل المهنة أنه لم يمد يده ويكسر حجراً طوال عمليات البناء. كما لم يسمح للبنّائين أن يفعلوا منذ استلم أسرار المهنة وولّاه السّلطان عليهم كبير البنّائين. اشتهر آخموك بهذه المزيّة في كل الصّحراء، واعتبرها أهل الخبرة معجزة إلهيّة، إذْ لم يكن لأحدٍ من الحرفيين أن يتصوّر تشييد بنيان حجري دون كسر حجر واحد. كما لم يخطر ببال أحد، بما في ذلك السلطان نفسه، أن السِّر لا يكمن في المعجزة، ولكن في المحبّة.

كان يستيقظ مع طلوع القبس الأوّل. يصلّي ويقرأ الآيات القرآنية. يخرج ويبدأ في تفقّد أكوام الحجارة. يبدأ حديث العشق، ويستغرق في مناجاة طويلة تستمر حتى شروق الشمس. يتكلّم بصوت مسموع أحياناً، يتمتم أحياناً أخرى، ثم يخاطب المعشوقات بلغة القلب واللّه والغموض. تنقل له الحجارة خطابات الأسلاف، تنقلها له مرموزة في علامات وإشارات وإيماءات. فلا يجد صعوبة في فكّ الرموز والإشارات والايماءات. لأنّ المحبّة القديمة علّمته لغة الحجر قبل أن يتعلّم لغة النّاس. وما زال يرى أنه يستطيع

أن يفهم الحجر ويتعامل مع الحجر بطريقة أسهل من فهم الناس أو التعامل مع الناس.

في أحيان أخرى يتلقى من الحجارةالأسرار العظمى. أسرار الآلهة. فيبدأ مناجاة حزينة تنتهي بالبكاء أحياناً، أو بالوجوم والسكينة أحياناً أخرى.

يتلقى آخموك خطابات الأسلاف ورسائل السماء كل يوم قبل أن يشرع في العمل.

(٦)

استقدمه السّلطان «أناي» لتشييد مدينة «واو» فاختلف معه بشأن مادّة البناء. رأى السلطان أن يتمّ البناء بالطين الأحمر فقال آخموك إنّه لا يحسن التّعامل إلّا بالحجر. حاول المستشارون والعرّافون وأهل العقل والخبرة أن يقنعوه بمزايا التربة الطينيّة في المحافظة على البنيان والصمود في وجه الزمان وعوامل التعرية الصحراوية. فأبى وعاند ودافع عن كفاءة الحجارة. ضربوا له المثل بأبنية الواحات الطينيّة وقالوا إن لها قدرة خرافيّة على قهر الزّمان والصّبر في وجه القبلي فاقترح أن ينسحب ويبحثوا عن خبير آخر أكثر منه علماً بمادّة الطّين. تولّى السلطان الأمر وحاول أن يقنعه بنفسه. حاوره قائلاً:

ـ لا أدّعي العلم بما ليس لي به علم. ولكنّي أعرف شيئاً واحداً مع ذلك هو قوّة الطّين. ولو لم يكن الطّين بهذه القداسة وهذه القوّة لما خلق اللّه منه المخلوقات.

قال آخموك بتسليم:

ـ لا أنوي أن أشكّك في اختيار الإله، ولكن لا أستطيع أن أدّعي العلم. ليس لي به علم أيضاً. عبدك الضعيف لم يعرف غير الحجارة. لم أعرف غيرها في البنيان كما لم أعرف سواها في الحياة.

ـ لو كنت أملك الوقت لأخذتك من يدك إلى واحات الصحراء المقامة بهذه المادّة السحريّة، ولجعلتك تقف بنفسك على قدرتها في الثبات على الأرض، والصمود في وجه غول الزّمان.

ـ لا يستطيع مخلوق صغير مثلي أن يطعن في مادّة فصلته عن التّراب وجعلت منه إنساناً مكابراً يدبُّ على قدمين، ولكن السّر، يا مولاي، أنّي أجهل سرّها. أعطني حجراً وسترى كيف أُنزل لك «واو» الضائعة من سمائها لتراها حقيقة أمامك في الصحراء.

ـ ألا تثق بالسحرة؟ ألا تثق بالعرّافين؟ ألا تثق بي؟

ـ استغفر اللّه. وهل يجرؤ المخلوق الصغير أن ينكر هذه الأسماء الجليلة؟ ولكن ماذا أفعل! إذا كان قلبي في الحجر؟

فكّر السّلطان. رسم رموزاً سريّة على الأرض. حاججه بلغة الأسلاف:

ـ يتحوّل الحجر إلى طين بفعل الزمان، ولكن الطين لا يتحوّل إلّا إلى طين.

شكك آخموك في الحكمة السلفيّة:

ـ لا أريد أن أطعن في حجّة مولاي فأقول إن الطين يتحوّل إلى صلصال، إلى حجر، ولكن شئت أن أقول شيئاً آخر يحزنني: فالزمان، يا مولاي، يحوِّل كل شيء إلى لا شيء. الحجر إلى تراب، والطين إلى هباء تطير به الريح. ألا يتنازل مولاي فيشارك عبده الصّغير الرأي القائل إن الحجر أكثر صموداً من الطّين لسبب واحد هو أن الطين يحتل المسافة الفاصلة بين الحجر والهباء؟

غمغم السلطان:

ـ اعترف أنّي لم أفهم تماماً.

ـ أردت أن أقول إن بناء الطين يتحوّل حالاً إلى تراب وهباء عند الانهيار، في حين يملك الحجر فرصة أكبر للمقاومة. فالزمان لا بدّ أن يحيله إلى طين قبل أن يضع حدًّا لحياته في الفناء.

صحك السلطان باستخفاف، فتشجّع آخموك ليراهن على السرّ في الحجر:

ـ في الصّحراء حكيم واحد، تحدّى الزمان وحطف وصايا الأسلاف من فم الريح. حفظ نصوص «آنهي» من الضياع وأنقذ شرائع المسيرة. غنّى للآلهة في السّماء وتظافر لملاقاتهم في العلا. تواثب كالبنيان المرصوص ليطيل قامته في الجبال. نال شفقة الآلهة وخشيت عليه من وعثاء السفر السماوي، فنزلت من عرشها ولاقته في منتصف الطريق. فحلّت به وكافأته بالخلود.

تابع السلطان مناجاته بفضول. ثم قال بغموض:

ـ لك الإذن في أن تبني بمادة تدّعي لها الخلود، ولكن الإذن مشروط. أنْ تكفَّ عن مناجاة الحجارة.

تكلّم آخموك بحزن:

ـ كيف تريدني، يا مولاي، أن أكفّ عن مناجاة وطن اللّه؟

هدّده السلطان بسبابته:

ـ لا اريد أن ننتهي قبل أن نبدأ. في القبيلة بشر لا يرون في الحجارة إلاّ أصناماً تحلُّ فيها الشياطين!

(٧)

دسَّ حجارته السريّة في الأسس، وصنع من تمائمه النفيسة أعمدة لبنيان المدينة المقدّسة. استعار أعمدة المضارب، وجعل منها مراكز للمعمار المبارك. استعان بالعرّافين في تحديد الموقع، فأجمعوا أن السهل، بجوار الجبل المستحيل، هو قلب الصحراء الكبرى، ومركز الأرض كلّها. ناجى آخموك حجارته مع مطلع كل قبس وبدأ رحلته الجريئة لإنزال «واو» من سماواتها العليا، وإلحاق الأرض بوطن الآلهة في الفراديس الأولى. استدلَّ بإشارات الحجارة، وقرأ فيها وعد القدر وعلامات البشارة. فاز بإعجاب أهل «واو» كما

حاز على دهشة أبناء القبيلة. أدهلهم أن تُبعث الواحة السماويّة المفقودة في الأرض الموات فأطلقوا عليه لقب «إيمستغ»(*) دهشةً من ضآلة جسمه وإعجاباً بعمله. أكمل بناء السّور فجاء مَن زرع في رأس السلطان أمر القربان.

حدث ذلك بعد الأحداث الجليلة التي نزلت على رأس «واو». ترددت رواية في السهل تؤكّد أن الفقهاء والدراويش وسحرة المجوس اتفقوا لأول مرّة في تاريخ الصحراء فأجمعوا على ضرورة نحر القربان تقرّباً للسماء ودفعاً للعنة التي لحقت بـ «واو» وظلّت معلّقة فوق رأسها كسيف خرافي مسلّط. ولا يُعرف أيضاً من اختار الودّان بين كل أنعام الصّحراء ليكون القربان المرشّح. كما لم يعرف آخموك متى أعطى السلطان الأمر، ومتى تحرَّك العقلاء ورسموا الخطّة، ومتى انطلق الصّيادون إلى الجبال طلباً لرأس الحيوان المقدّس.

نهض في فجر أحد الأيّام ليبدأ مناجاة القبس البكر بلغة الحجارة فوجد «آمغار» الجليل، يقف في مدخل «واو» الجنوبي، مربوطاً بحبل من مَسَدٍ إلى الباب المصنوع من جذوع النّخل. كانت لحيته المخروطة تتدلّى حتى تلامس الأرض. وفوق رأسه المكابر تلوّى قرنان مهيبان عدّة التواءات. وكانت قامته ترتفع على الأرض وتنافس في طولها قامة الثيران. في عينيه رأى آخموك سرّ الحجارة الجبليّة وسمع كلمة اللّه.

خرج من بيته واتّجه إلى «أمغار». وجد رجال السلطان يسنّون السّكاكين استعداداً لنحر القربان. حيّاه أحدهم بإيماءة من رأسه. وتطوّع الثاني فأخبر:

ـ أمر السّلطان بنحر القربان قبل الشروق!

لم يعلّق. اقترب من الحيوان العظيم فرأى معجزة. سقط آخموك على الأرض وبدأ يتلوّى. هرع إليه الرجال فوجدوه يرتجف. عيناه جاحظتان وفمه يلفظ الزبَد. توسّل بفجيعة:

(*) إيمستغ: السنونو (تماهق)

- لا تذبحوا القربان. لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان!

تبادل الرّجال نظرات سريعة. تولّى اثنان من المجموعة حمله إلى بيته فقاوم وتوسّل وكرّر الرجاء:

- لا تذبحوا القربان حتى أقابل السلطان!

ولكن الأمر قد صدر أن يُنحَر القربان قبل الشروق. أكملوا شحذ السكاكين وأوثقوا المخلوق الجبلي. جاء رجال آخرون وانضموا للجماعة. تكأكأوا فوق الضحيّة. وأغمدوا في نحرها السكين. عاد آخموك يزحف على قدميه ويديه ويتوسّل كالطفل:

- لا تذبحوا القربان حتى أُقابل السلطان.

ولكن السكين الشرِه كان قد شرب من وريد الإله الجبلي القديم.

وصل الدرويش. ناح بلغة الدراويش:

- ويلكم أهل الأرض. ويلكم مخلوقات الشرّ. ويل للإنسان الذي لا يعرف لشراهته الحدّ. أكلتم لحم الحيوان. أكلتم لحم أخيكم الإنسان. وامتدّت أياديكم إلى لحم آلهة السماوات. فما أتعسكم. ما أشقاكم. ما أبشعكم!

بدأ آخموك يتلوّى على الأرض كأنّه يحتضر. وقف فوق رأسه الدرويش ورفع رأسه إلى القبس المقدّس. في تلك اللحظة أفلت الودّان العملاق من جمع الجلاّدين. ركض باتجاه «ايدينان» يجرُّ حبل المَسَدِ الملفوف حول ساقه، وتنزف رقبته بالدم. تواثب الجلاّدون وركضوا خلفه. ولكن الودّان دخل الحَرَم الجبلي وبدأ يصعد الصخور المنيعة.

استمرّ آخموك يعاند الحمّى أيّاماً أُخر. وعندما مات وسمع الدرويش بالخبر قال لنفسه: «لقد مات آمغار أيضاً». هرب إلى وادي الطلح. هناك ناح بلا صوت، وبكى بلا دموع.

(٨)

بعد يومين بدأ غزو بني آوى. جاءوا من الجبل كأنّ آمغار هو الذي بعثهم، تتقدّمهم بنات آوى، وفوق رؤوسهم يحلّق مقاتلون من قبائل الجنّ.

ليماسول (قبرص)
٥/٨/١٩٩١م

آمغار(*)

«... معروف كشخصيّة كونيّة. مطّلع على السرّ. مرتدٍ جلد ظبي أسود، مع ذقن طويلة. يسافر من المحيط الشرقي إلى المحيط الشمالي ويخلق العالم.

مرسيا إلياد
«تاريخ الأديان والعقائد»
المجلد الأول

(*) آمغار: الأب الجدّ، كبير القوم: زعيم القبيلة. الشيخ. (بلغة الطوارق).

(١)

كان علامة محفورة على صدر الصخر. إشارة مجسّمة بـ«تافتست»(**) في كهف نحتته الآلهة في جبل الصلصال. كان وشماً مخطوطاً بروح الأسلاف. إيماءةخفيّة مجبولة بلهفة أهل الصحراء على الحياة والبقاء. تميمة منحوتة على لحمة الحجر، تقيهم شرّ الإنقراض والفناء. أعجوبة خرجت من متاهة السكون والزوال لتقيم في محراب الزمان، لتتبدّل معه في خلوده، وسيرورته، وغدره، وباطله. وجد نفسه ينفصل عن لحمة الحجر، يدبُّ على قوائم. كائن يسعى. يهرع إلى الجبل السماوي المستحيل ليلتقط أبناء القبيلة من القمّة، ويعود بهم إلى قمم تادرارت. يلقيهم في كهوف الأسلاف ليعودوا إلى الحياة ويُبعثوا أولاداً من جديد. ينزلهم من سماوات «ايدينان» المجهول. يعيدهم إلى الحضيض. إلى الأرض. إلى التراب، قبل أن ينتقلوا إلى أرحام الأمّهات، ويتواصلوا في النسل الذي يحمي القبيلة الصحراويّة الشقيّة من غول الفناء.

.. لأن الآلهة شاءت ألّا يتحوّل المخلوق السماوي، الهائم مع الغيم فوق ايدينان، إلى إنسان، قبل أن يتنقّل ويتبدّل ويتقلّب في الأرض كما يتنقّل ويتبدّل ويتقلّب الزمان المكابر في مداراته السرية. وهو يجهل هذه المدارات. الآلهة التي أرسلته لم تشأ أن تكشف له حجاب التحوّلات. وجد نفسه مخلوقاً

انفصل عن لحمة الجبل. يجري منذ بدء الحياة ليأتي بالمخلوقات الأرضيّة عندما تفقد الأوزار التي تشدُّها إلى الصحراء، إلى الأرض، فتتبخّر، وتتحرّر، وتنطلق مع الهباء والهواء وذرات الغبار لتنضم إلى الغمام المجهول المتجوِّل دوماً فوق الفوهة السريّة على رأس جبل المستحيل. كان يعرف أنه عجوز قديم، يقوم بدور الرسول الذي لا يعرف شيئاً غير البلاغ.

ولا أحد في الصحراء يعرف متى بدأ آمغار رسالته الخالدة، ولا أحد يعرف متى تنتهي أيضاً.

(٢)

وجد آمغار رأسه متوّجاً بعمودين قاسيين منحوتين من الصلد كي لا ينسى أصله الجبلي. ولكنه اكتشف، مع الزمان، أن الرسول يحتاج إلى سلاح للدفاع عن النفس، فاستخدمهما للنطح وردع المخلوقات العدوانية.

اكتشف مهمّة أخرى للعمودين المكابرين عقب مطاردة قاسية من الرعاة الأشقياء. فاجأوه يرتع في وادٍ عميق مع انشطار الأفق بنور القبس البكر. لا يعرف كيف عرف الأشقياء سرّه فحاذروا أن يأتوه من جهة الريح البحري الذي يتحرّك مع الفجر، وتركوه يبدأ صلاة الاستسقاء. يمّم شطر الشمال وتنسّم الماء في الهواء الشمالي الرطيب. فالأعشاب الجافة لم تزده إلّا ظمأ، والسماء لم تجد بقطرة مطر منذ أعوام، فجفّت المياه في شقوق الصخور، ولم يبق إلّا أن يؤدّي الشعائر القديمة التي ورثها عن الأسلاف: وقف ليتزوّد بالماء من النسيم البحري، ويشرب الندى من فم الرسول الشمالي.

في هذه اللحظة الجليلة، المشحونة بالخشوع والتسليم والابتهال، هاجمه الأشقياء من الوراء، وألقوا بالوهق على العمودين. قفز إلى العَرَاء وطار نحو الجبل. نعم. الجبل هو معبد الودّان، وحَرَمُ الصحراء. في كهوفه تولد المخلوقات، وفي قمته تصعد إلى السماء. الجبل: مسقط رأس آمغار وحصنه

الحصين. الجبل: العمود المقدَّس الذي حفظ وصايا الأسلاف من الانقراض، ونقل للأجيال أغاني الشجن ومواويل الحزن وأساطير التكوين. الجبل: في حضنه يتلاقى أهل الصحراء بأهل الخفاء، يستعيدون الماضي المجيد عندما كانوا قبيلة واحدة لم يفرِّقها الجشع، ولم يشتت أبناءها العدوان. الجبل: صومعة تغنَّت بها الصبايا، ونظمت في صبرها شاعرات القبيلة أنبل القصائد. الجبل: عماد الكون الصحراوي المكابر، ونصب الآلهة ومعقلهم العظيم.

وصل حضيض الجبل. بدأ يصعد السفح والوهق مُعلَّق برقبته. في طرف الوهق استمات أحد الرعاة وتشبَّث بالقيد بالأسنان واليدين. ولكنْ إنتظرْ! سوف أصل حمى مولاي، وأعتصم بحبله. عندها أرِني بطولتك، وأرني قوة حبلك!

وصل أول صخرة. قفزها مستعيناً بعموديه الهائلين، وتخطّاها إلى الناحية الأخرى. أحسَّ بخفَّة مفاجئة. كان مولاه العظيم أزاح عن كاهله صخرة عظيمة. التفت من وراء العين، فرأى أن الشقيّ، الذي جرّه طوال المسافة، قد تخلَّف وراء الصخرة. لم يَهْرَع باقي الرعاة لمساعدته، ولكنهم طاروا وراء الطريدة. طاردوه هو وتسلَّقوا الجبل من الجانبين. ولكن انتظروا أيها الأشقياء! سأريكم ماذا يستطيع «آمغار» العجوز أن يفعل عندما يمثل بين يدي مولاه. تقافز فوق الصخور. تنقّل بين حجارة أشرس من مخالب الوحوش. بدأ الاشقياء يلهثون. رماه أحدهم بسهم فأجارته منه صخرة حطَّها مولاه كي تكون له درعاً. بدأوا يستغيثون ويتصايحون. أحدهم تدحرج عبر السفح بعد أن داس على حجر إنهار امتثالاً لأمر مولاه. أدرك القمّة الأولى. استدار كي يتفقَّد ساحة العراك. وجد شقيًّا ممسوساً يقف فوق رأسه ويهمُّ أن يطعنه بالرمح. التفت فرأى الهاوية في الظلمات. سمع صوت مولاه يأمره: «اقفزْ على رأسك. على قرنيك المستعارين من لحمة الصخر وسترى أن في الموت الحياة».

امتثل لأمر مولاه. سقط على رأسه في الهاوية. سافر في رحلة السرّ الغامضة. قابل كل الأسلاف الذين سبقوه. رآهم وهم ينحتونه في سورة الحجر. في بدن الجبل العظيم. سخروا من فجيعته وخوفه من الموت وقالوا له أن في الموت الحياة والحياة ما هي إلّا موت. سمع العرّاف يقول: «إذهبْ. عدْ إلى هناك. وتنفَّس. ومارسِ الشقاء الذي يسميه أهل الباطل حياة. وعدْ لنا بعد عمر طويل وحدِّثنا عن رحلة تبدأ في الخلاء وتنتهي في الخلاء». ثم تشاور العرَّاف المهيب مع السحرة واستوقفه قائلاً: «انتظرْ. فلقد وجدنا لك عرضاً يجعل معنى لما تسمونه حياة. أعطيك الخلود بإذن الآلهة مقابل أن تأتيني بكل مَنْ انقطع به الحبل من الأحفاد. أنت رسولي إليهم، ورسولهم لي في مأواي. ولكن احترس، فالوصيّة تتبع كل أمرٍ مقدّسٍ: إيّاك من المكابرة، ومن نظرة الاستعلاء. فالاستعلاء يحرق التميمة ويجعل منك مرسولاً بدل الرسول. فاترك الاستعلاء للآلهة وآتني بالأحفاد!». ثم... د.. د.. د.. د.. م.. م.. م.. م..

غاب العراف، واختفى طابور الأسلاف، وسمع صوت ارتطام قرنيه الجبارين بالصخرة، في هاوية الجبل. في الرحلة تخلَّص من الوهق المعلَّق في العمودين، ووجد نفسه أبعد ما يكون عن أيدي الأشقياء، وعن غول الخطر. تفقَّد سلاحه فأدهشه أن القرنين لم يصبهما الأذى. تلفَّت حوله وبدأ يصعد السفح ليخرج من الهوَّة.

ولكن هيهات أن ينسى شعائر الرحلة السريّة مَنْ عبر برزخ الهاوية. وعاد إلى الملكوت الصحراوي من جديد.

(٣)

في المرّة الأولى ذهب في الهاوية إلى المجهول، وعرف وظيفة القرنين، وبهما عاد إلى الصحراء مسلحاً بوصايا الأسلاف.

وفي الجولة الثانية عرف أن العشب دائماً شرك.

إنفصل عن القطعان واعتزل في شقوق الجبال. هام وحيداً. اعتصم بظلمات الكهوف. أعاد قراءة الوصايا المزبورة على الجدران الصخريّة. فكَّر في عدوان أهل الشقاء، وراجع في قلبه آيات الخطر مستعيناً على الهوى بالصيام. استعاد رحلةالمعراج التي استغرقت من عمر الوجود غمضة، وقطع فيها مسافة شاهد فيها منابع الزمان في الأزل، وطاف بها كل الأركان والأكوان. في غمضة عرف قدراً كان أقرب له من حبل الوريد فعاد بمجرّد أن طوى العرَّاف كتاب السرِّ والخلود، فنطح الصخرة في الهاوية، ليجد أنّه قد وُلد من جديد.

قرأ في صومعة الإعتكاف نصوص الكتاب السري، وتمثَّل نبوءة العرَّاف الذي طوَّق رقبته بتمائم الرسل، ليؤدّي الرسالة الأبدية.

قتل الهوى بالصيام، تطهَّر من الرِّجس بالاعتصام. نزل إلى الأرض كي يقيم أوده، ونسي أن مَنْ خرج من زحمة القطيع، عليه أن يدبِّر أمره، ويصنع من نفسه ربّاً على مصيره.

(٤)

على باب العشب رابط له الأشقياء بالمكيدة.

وهل يستطيع أشقياء الأرض أن يرابطوا على فخّ آخر غير العشب؟ هل يستطيع المخلوق الأرضي المسبوك بالطِّين، المجبول على النَّهم، أن يراهن على شرك أقوى من اللقمة التي تقيم الجوف الشيطاني؟

ولكنه لم يقدر أن يقنع نفسه بهذه الحقيقة الكريهة في ذلك العهد المبكر.

كان حذراً دائماً. ولا يستطيع أن يقول أنَّه تخلّى عن هذه الحكمة التي رضعها في حليب الأم والتقطها من سلوك الأسلاف، ولكن حيل الإنسان

غلبت، دوماً، حذر أذكى المخلوقات، بما في ذلك الودّان.

نزل السهل في الظلمة. بعد منتصف الليل بكثير. قُبيل الفجر الأوّل بقليل. تشمّم التراب، شرب من نداوة النسيم الشمالي، فسكر من رحيق البحري مستعيناً بالهواء الندي عن الظمأ الأبدي، مستنشقاً أنفاس الفردوس السماوي البعيد. فيبقى النسيم الفجري البكر بلسماً للظمأ الأزلي، عزاء في القيظ الصحراوي الخالد. و.. تميمة أخيرة للحياة.

ولكن هل يطعم النسيم عشباً؟

لا ليس بالنسيم وحده يحيا الودّان، حتى لو كان النسيم مستعاراً من فراديس الشمال.

(٥)

بحث في أنفاس الماء عن الرائحة، رائحة المخلوقات الممسوسة التي لا تنام إلّا إذا اقترفت أذى. لا تهجع للسلم،ولا ترضى أن تريح الرأس الشيطاني على صدر الأم الأولى، على صدر الأرض الصبور، إلّا إذا قطفت زهرة رتم، أو حزّت رأس نخلة وسكرت بقلبها، أو أجهضت غزالة بريئة تركض في البريّة، أو... أو تعاونت في قتل ودّان يعتصم بالجبل، ولا يريد من الخلق إلّا العزلة والمنفى والنسيان. ولكن هيهات: فالمخلوق الممسوس لن يهدأ إلّا إذا ملأ الجوف بلحم ذوي القربى، لأنه لا يستطيع أن ينام طالما كان الشبع هو القرين الأوّل للنعاس والخمول والإسترخاء.

بلوى أخرى سلّطها القدر على رأس الودّان هددته دائماً بالإنقراض لو لم يهرع الأسلاف لإنقاذه بحصن إسمه: حاسة الشمّ. لقد تفقّد كل الأراضي المجاورة بخطمه قبل أن يجرؤ على الإقتراب من عشبة الوادي.

(٦)

قاده قدره إلى الطعم الأبدي المدسوس في الطعام. اقتطف فروة الحلفاء وطفق يمضغ بحذر. يطحن العشبة الحريرية لحظة، ثم يتوقف فجأة لينصت لدبيب المخلوقات. صمت. سكون مقدّس. تعب حتى الجنّ وتوقفوا عن محاوراتهم الليلية في الكهوف ومشارف الوديان. تعب حتى التّعب وهجع للإسترخاء ولكنه لم يطمئن. كيف يطمئن مَنْ ورث ألف ألف وصيّة سلفيّة تبدأ كلها بـ «إذا..» وتنتهي بتحذير أصبح شريعة بسبب التكرار: «.. فاحترس من المخلوقات التي لا تنام، ولا تكفّ عن اقتراف الأذى».

(٧)

ولكن حاسة السمع حصن آخر ضد حركة المخلوقات. فإذا كان يستطيع أن يرى العدوّ، بخطمه في نفحة الهواء الذي يشربه على مسافة أيام، فإنه يستطيع أيضاً أن يبصر الخطر بالأذن على مسافة أيام أُخَرْ.

ولكن مَنْ يستطيع أن ينافس المخلوق الغامض في اختراع المكائد؟

رأى الأثر المشبوه تحت شجرة الحلفاء قبل أن يبتلع اللقمة الأولى. هل هو أثر عشبة بريّة جرجرها الريح، أم طلاسم سحرية رسمتها يد المخلوق الممسوس بعرجون نخلة؟ وحتى إذا كانت العشبة البرية بريئة من صنع الأثر الخفي، فإن الرموز الغامضة رُسِمَتْ ببراعة لا يتقنها إلّا السحرة من فئة المخلوق الممسوس.

حاول أن يتبيّن الخطوط في الظلمة. تقدّم ليقرأ رموز المجهول. ونسي وصيّة الأسلاف التي تحذّر من الفضول، وتنهي عن التمادي في المعرفة. لأنّ ما يسيء كامن في الغيب، والنبوءة تنطق بلسان الخطر، ولولا الفضول الشيطاني لما تلقّى المخلوق المقدّس لعنة الشقاء، فَطُرِد من فردوس النعيم ليجد نفسه وقد تحوّل من ملاك سماوي رحيم إلى إبليس أرضي رجيم.

تقدّم خطوة أخرى فوقع في الفخ.

(٨)

جرجر الشرك واعتصم بالجبل. ركن إلى الصخور واحتمى بالعزلة. استعان على الأذى بالمنفى، وتخلّص من الشرك بالصوم. خسر العالم حقّاً، ولكنه أدرك أن هذه الخسارة هي الشرط الأوّل الذي يتكبده كل مَنْ شاء أن يعرف خالقه ويكسب نفسه.

(٩)

ثم باشر المهمة، وبدأ المسيرة السريّة.

طاف الخلوات، وتنقّل بين ربوع القبائل. يجمّع الأخيار الذين تحرّروا من قمقم البدن، ويعود بهم إلى مغاور الظلمات، كي يَمْثِلوا أمام الكاهن الخفي. هناك يخضعون للحساب. يعلمهم لغة الولادة كي يفهموا أخيراً أن الكابوس سيبقى قدر الإنسان ما ظلّ يبحث عن الخلاص خارج نفسه.

(١٠)

. . إلى أن قدّر المقدّر وأرسله إلى جبل الجنون كي يعود بحفيد الأجيال إلى أرض السكينة لتنظر له الجبال أمر الولادة عندما يَمْثِلُ للمساءلة بين يدي الكاهن الأعظم.

في طريق العودة إعترضه الدرويش، وحاوره بلسان أهل السرّ. ولم يكن صعباً عليه أن يخاطبه بنفس اللغة ويخبره بالسّر بلسان أهل السرّ.

(١١)

ولكن المخلوقات الشقيّة التي لم تقنع يوماً بالهزيمة، اعترضته في سفوح القمم، وطاردته عبر العراء المفروش بحجارة أقسى من ألسنة السكاكين.

كان متعباً.

أنهكته الرحلة الأبدية، وناء تحت عبء الأمانة الأزلية. ولكن شرائع

النبل الصحراوي تقضي أن يعرّف بأن كل هذه الهموم لم تكن السبب الذي مكّن منه الأعداء ليجد نفسه وقد أُصيب بالرمح القاتل في النحر. نعم. فليعترف الآن بأن الإستعلاء هو السبب.

فليعترف أنه خالف وصية العرّاف السّري ورفع رأسه إلى السماء مكابراً. نعم. ضربة القدر القاصمة لا تنزل إلاّ في غفلة الزهو وتيهِ المكابرة.

وهي وصية ورثها عن الأُسلاف أيضاً، ووجدها أخيراً مخطوطة على جدار المغارة، ولم يفعل عرّاف الهاوية إلاّ أن ذكّره بها وأعادها على سمعه في معراجه القديم.

فبعد أن نجا من أيديهم، واستطاع أن يتحصّن بالصخور الإلهية، شعر بزهو النّصر، وغمرته الرغبة الشيطانية في أن يتباهى بالتفوّق، وغلبه طَبْعُ الودّان الفاني، فتوقّف عن الركض في القمة، والتفت إلى الأشقياء ليسحقهم بنظرة الإحتقار التقليدية. لم يدرِ أنه تشبّه بالآلهة، ونسي المهمة الرسولية الخالدة، وغلب فيه طَبْعُ المخلوق الوضيع الفاني، تطبُّعَ المخلوق السماوي الخالد، فنال الجزاء في الحال، وهوى من قمة الجبل المستحيل إلى حضيض الأرض، ليقع بين يدي الأشقياء.

بدأت دورة أخرى من دوائر القِصَاص.

(١٢)

جاءوا به إلى «واو».

هناك انتظرته مفاجأة أخرى.

فما أنْ مَثَل أمامه «آخموك» الفائز بلقب «إيمستغ» حتى عرف وَلَدَه القديم. إبنه الذي حمله على ظهره وعبر به الصحاري كي يمثل في حضرة الكاهن ويحفظ سيرة الولادة ويختم على ذاكرته بالنسيان قبل أن يحين الوقت ويعود إلى الصحراء من جديد. ويبدو أن ذاكرة هذا الإبن العجيب كانت أقوى من النسيان، فتمرّدت على القانون السرّي وتذكّرت الأب. لقد اضطرَّ أن يخبره بكل شيء في نظرة واحدة. ففهم إبن الحجر لغة الجدّ الحجري وانهار

بـالحمّى قبل أن يُبلِّغ السلطان بـالرجـاء. ولكن آخوك المسكـين لم يـدرك أن آمغـار لا ينزل السهـل، ويقف أمام الحفيـد، إلّا إذا أخـذ معـه الأمـانـة إلى الجبـل. لأن الأمانـة هي القربـان الوحيـد الـذي سيكفِّـر بـه آمغـار عن إثْم الكـبرياء الـذي صرعه. وشريعـة الأسلاف هي التي تقـول إن على آمغـار أن يضحّي بإبنه إذا شاء أن يكفِّر عن السيئة، ويكسب رضوان الالهة.

لأنّه الوحيد، في النهايـة، الذي يعلم أن في نجـاته حيـاة الصحراء، وفي اختفائه زوال القبيلة وفناء الأجيال.

ليهاسول ـ موسكو
١٩٩١

١١ ـ تافاوت(*)

(*) تافَاوت: القبس (بلغة الطوارق).

تلقّت الوصايا القديمة من رموز «تيفيناغ» التي دأبت الوالدة على نقشها فوق الوسائد. رضعت قصص البطولة وأساطير النّبل من ثدي الأم، ورأت الأسلاف في الأحلام، وفكّت طلاسم الوصايا في الرّموز المطرّزة بالخيط والإبرة على أقمشة الوسائد. كبرت، وسألت، فعرفت أن العلامات الغامضة المحطوطة على جلود السروج، ومستلزمات المهري كلها تمائم الأوّلين وكنوز الأسلاف. أورثوها للأحفاد وتناقلتها الأجيال ليعرفوا المسيرة ويعدّوا للتّيه نصوص الشريعة الصحراوية. و... عرفت تافاوت أن الأم هي الحصن. الأصل. تميمة الحياة في كل القارة النائمة. ولم تكن تحتاج لأن تقرأ الأم على رأسها هذه التعويذة عندما حان الميعاد وجاء أوان الرّشد لتجد نفسها محبوسة في خباء خاص، تتلقّى أسرار الرحلة الجديدة على يدي عجوز حكيمة، تتمتم بتمائم المجوس التي تعلّمتها من سحرة «كانو» حتى تسهّل الأمر وتفتح لها باب المعراج لتدخل الحياة. وكان عليها أن تتذكّر إلى الأبد وصيّة العجوز التي استعارت لغة الصحراء في تلك الليلة وتكلّمت بلسان الأسلاف عندما أنهت شعائرها السحريّة: «اكتبي في قلبك، منذ اليوم، أن الأنثى في الصحراء هي الحياة. في جوفك تتلقين البذرة وتحمين النّسل من الانقراض. بفمك تتكلمين بالوصايا وتنطقين بالشرائع. بيديك تنقلين الرموز للأجيال ليتعلّموا منها «تيفيناغ». تستطيعين، اليوم، أن تذهبي وتغني وتعشقي وتأخذي من

رجلك سرّ البقاء، تميمة الصّحراء».

خرجت من خباء السرّ لتجد نفسها بين يدي الأم. أجلستها بجوارها في شمس الضُحى وصمّمت أن تتولّى الشوط الجديد. ترتق رموز «تيفيناغ» على الوسائد والثياب وسروج المهاري لا لتتعلّم أسرار الأبجدية القديمة، ولكن كي تفهم لغة العشق. جاهرت بالدعوة في التعاليم التي تقول:

ـ لا تركض المرأة وراء الرّجل ليحميها من نوائب الدّهر ويهبها الأمان من غدر الزّمان، ولكن كي تقتني من صلبه الذريّة. فإذا أدركته ونالت المبتغى فقد فازت في الحياة وتلقت سرّ اللّه في خلقه. فإن هجرها بعد ذلك فلا يحق لها أن تحزن، لأن الرجل مخلوق بائس وضعيف لا يستطيع أن يحمي نفسه، فهو أحوج مخلوق للعزاء.

تبعد الأقمشة والثياب فيأتي دور الجلود. تستبدل بالإبرة عود الكحل وتبدأ في نقش الحروف الأولى في ملحمة الوصايا. تواصل خطاب التّلقين:

ـ . . .وقد باركت اختيارك لـ «اوداد»، ليس من باب الاستجابة للشريعة القبلية التي ترى في ابن العم أنسب ذكر للإبقاء على النسل، ولكن لأنّه ولد أخضر. نعم. أخضر. هل تعرفين ماذا يعني أن يفوز الولد ببدن أخضر؟

لم تعرف. من أين لها أن تعرف أسرار الكون الصحراوي أو تفهم معنى اللون الأخضر في بشرة الرحال وهي التي خرجت بالأمس من خباء المنعطف ووضعت على رأسها الطرحة الزرقاء علامة البلوغ، وأحسّت أن عود القدّ فيها هو الأخضر، والدّم الذي يتدفّق في شرايينها ويغذّي حلمتي ثدييها ليس ذو لون أزرق كما تدّعي عجائز القبيلة، ولكنه أيضاً أخضر؟

رفعت الأم رأسها إلى قرص الشمس، حدّقت في شعاع الشمس بعينين واسعتين طغى فيهما البياض فبدت مثل ساحرات «كانو» عندما يبدأن في ممارسة الشعائر المجوسيّة الخاصة باستحضار الأموات أو الغيّاب أو الجنّ. أنهت الشعيرة المفاجئة فانبثقت الدموع. نطقت بالبشارة:

ـ الرجل الأخضر كنز، لأن الصّحراء خصّته بهذا اللون جزاء له على القناعة. الرجل الأخضر يعاف اللّحم ولا يعرف الجشع. الرجل الأخضر قلبه في السّماء ويعيش مع الملائكة لأنه لا يعرف غير العشب طعاماً. في قلب الرحل الأخضر ينام السرّ، لأنّه محبوب الآلهة. فافهمي!

تترنّح يميناً ويساراً. ترفع عود الكحل إلى عينيها. تخط به علامة سريّة على الأهداب، وترسم إشارة أخرى على الحواجب. ثم تعود وتنحني على قطعة الجلد لتستعير من مثلثات الإلهة «تانّيت»، وأشكال الغزلان المسحورة، روح الوحي والسّحر والنبوءات الوثنية.

تعتدل في جلستها وتستعين بالنبوءة على الدرس الخالد. درس الأم لوريثتها الأنثى.

ـ هل تظنّين أن أهل الصحراء يحتقرون الأكول مراعاة لشرائع النّبل ومجاراة للكبرياء؟

تمدّ يدها النحيلة وتهدهد التراب حتى تعزل الشر وتحتمي بالأرض من شيطان الكبرياء، ثم تعود إلى درس التلقين:

ـ إعلمي إذن أن هذه وصيّة أخرى ورثوها عن الأسلاف. الأسلاف وحدهم حقٌّ لهم أن يعرفوا سرّ الشّبع. فلعنوا كل أكول، وسلّطوا الشاعرات الحسناوات كي يرجمن بقصائد الهجاء كل الرجال النّهمين ليصنعن لهم بقدرة الشعر؛ إسماً من عار، ليتولّى القبلي نقله إلى كل بقعة في الصحراء، فافهمي!.

ولكن الدرس لا ينتهي عند هذا الحدّ. فلا بد أن تعرّج الأم الحكيمة على السّماء، لتستطلع، وتختتم الدرس بكلمة السماء:

ـ ومن غير القدماء يستطيع أن يعرف أن المخلوق إذا شبع ثقل والتصق بالأرض؟ ومن غيرهم يستطيع أن يعرف أن من استسلم لتراب الأرض استعاده تراب الأرض، ولن يكتب له أن يرى النجوم أبداً؟

فافهمي أن السماء لا تعترف بغير الجائعين ذوي البطون الخاوية الذّين يدبّون في الصحراء ورؤوسهم في السماء، لأنّهم لا يطلبون في مسيرة الأرض إلّا واو السماء؟

هنا تجاسرت الوريثة وألقت بالسؤال لأول مرّة:

ـ وهل يبحث «أوداد» أيضاً عن «واو»؟.

ابتسمت الأم، في عينيها رقص وميض كالوجد. هزّت رأسها بالموافقة، كأنّها تبارك السؤال.

(٢)

غنّت له المواويل الصحراويّة الشجنيّة وهي تطارد الجديان في الأودية والمراعي. ساءلت ميراث الأسلاف على لحمة الجدران الصلصالية. خاطبت الصوامع الجليلة المعلّقة في سماء «تادرارت». بدأت مسيرة الطّلب في أغنيات العشق. حاورت الجنّ في أفواه المغاور لتتلقّى الجواب بلغة السرّ والخفاء. تبدّو إلها في ثياب المهاجرين، وعلّموها اللغة السحريّة التي بدونها لن يُكْتَب الفَلَاحُ لصبيّة صحراويّة في نيل مخلوق تخلّص من أغلال الأرض، وانتوى البحث عن «واو» السماء.

ناشدت المعمّرات الصحراويات اللاتي حفر الدهر على وجوههن الشرائع ليجدن أنفسهنّ كاهنات، وعرّافات، وساحرات:

ـ متى تفوز العذراء بقرين أدركه الطلب؟

فتجيب العجائز بلغة النبوءة:

ـ عندما يجد السبيل إلى واو؟

ـ ومتى يجد السبيل إلى واو؟

فتجيب الكاهنات، العرافات، الساحرات، بلسان العِرَافة والسّحر والكهنوت والقساوة:

ـ لن يجد إليها السبيل أبداً!

ولكن عذراء تجيش بالأمل، ويخفق قلبها بالعشق، لا تعترف بقساوة المعمرات حتى لو كُنّ كاهنات، وعرّافات، وساحرات، فتحتكم إلى لغة أخرى عرفها المهاجرون عندما يشتد بهم الظمأ ولكن لا ييأسون، ولا يفقدون الأمل:

ـ ورد في «آنهي» الضائع أن العاشق سينزل إلى الصحراء مهما طال به المقام في الأعالي.

تبتسم الكاهنات. يكشفن عن أفواه ظلماء خالية من الأسنان ليتفوّهن بنبوءة أقسى:

ـ سينزل إلى أسفل سافلين عندما تحين الساعة ويأتي وقت الزوال.

العذراء تغنّي موّال الحياة:

ـ آنهي لا يخطىء. آنهي لا يكذب. آنهي يقول إن العاشق الباحث عن واو في السّماء يهرع إلى السّهل ليحرث الأرض ويزرع قلب العذراء عندما يحين الميعاد.

ـ من أدركه العشق المجهول لا ينزل ولا يتنازل، لأنه لا يريد أن يحتضن العذارء ليلد للفناء. ولا يريد أن يقيم في السّهل ليبني للخراب، ولا يريد أن يسترخي في حضيض الأرض ليحشو جوفه للعفن.

ـ هذه ليست لغة الإنس.

ـ من قال إن من قطع على نفسه الوعد لم ينسَ لغة الإنس؟

ـ هذه ليست لغة آنهي.

ـ آنهي يتكلّم لغة الأمس. ولغة الأمس أنبل من لغة اليوم، كما لغة اليوم أنبل من لغة الغد!.

ناحت العذراء فاستجابت للنّداء. ركضت نحو الأفق حيث كتب الفجر وعداً غامضاً بقبس بكر، أخضر.

(٣)

أي قوّة في الصحراء تجرؤ أن تتحدّى إرادة القدرة وتخالف تعاليم الكاهنات الخرافيات؟ أي أنثى تتجاسر على الطمع وتسعى لنيل مخلوق انسلخ عن لحمة الأرض وأودع قلبه في السّماء؟ أي صبيّة تصرّ على أن تستولي على الودّان الجبلي الذي نذر نفسه للرّسالة وأوقف حياته طلباً للخلاص وقرباناً لواو؟

تاقّاوت وحدها تجرّأت، وتجاسرت، وأصرّت، لأن نداء الحياة في قلب العذراء أقوى من الحياء ومن سلطان الزوال على بوابة واو. وأغنية الميلاد أشهى من نواح الخلود. ولم يكن مستحيلاً على السماء أن تبتدع المعجزة وتحقق الخلق، فتستجيب لتوسلات العاشقة الصحراوية، وتنزل بالمعشوق المكابر من سمائه في قمم «تادرارت» إلى سهل الحبّ والبعث والحياة.

تشاورت آلهة الصحراء في أمر العذراء وقبلت أن تتنازل عن النّذر قرباناً للبكارة وتقديساً للحياة.

انشقّ القبس الصحراوي البكر بالبشارة، وفازت الأنثى الخالدة بالمعشوق المستحيل.

(٤)

ولكن شرائع الأسلاف أقوى من غريزة حبّ البقاء، والحياء في الصحراء أقدم رديف للحياة. بدأت شعائر الفرح، وحلّ الميعاد. غنّت الشاعرات قصائد الضياع فرقص الفرسان وصنعوا بالمهاري الضامرة قصائد أخرى. نزل المساء فقرأت في عيون العجائز الخرافيات الإشارة. امتثلت للأمر القديم وسلّمت نفسها للظلماء والخلاء. فرّت من وجه القرين امتثالاً لمشيئة الحياء.

ابتعدت عن المضارب. ابتلعها السّكون. استردّها القمر من يد الظلمة والجنّ وسلّمها أمانة في عنق الطّلح. هناك خرج لها جنّي آخر. تأمّلها طويلاً قبل أن يخاطبها بلغة الإنس: «ما أنبل الحسناء إذا تمنّعت. ما أجمل الأنثى إذا تحلّت بالحياء. الحياء هو الحياة».

ألقى عليها القبض، وساقها إلى خباء القرين.

(٥)

هناك، في جوف الحرم، عند أعتاب العرش التّرابي الجليل، تربّع القرين في مسوح الاقتران، وتلقّاها بيد الوعد. سفحت دمع البكارة وضحّت بالحياء قرباناً لنطفة البقاء. قايضت بشرائع السّلف بذرة الحياة عملاً بمشيئة العجائز الخرافيات اللائي أجمعن بأن لهفة الفوز لن تُكْتَبُ للصبية الصحراويّة ما لم تدفع مقابلها دماً. والحكمة تقول إن الموت هو الهبة الوحيدة التي يتلقّاها الإنسان دون أن تطالبه الآلهة أن يدفع ثمناً مقابلاً لها.

(٦)

لم يمكث القرين في السهل طويلاً.

استجاب للنداء ورحل إلى القمم طلباً للواحة السماوية القديمة التي لم تسجّل لها ذاكرة الصحراء وجوداً في كتابها الخالد، لتسقط، لهذا السبب نفسه، من حساب التاريخ، ومن حساب الزمان، ومن حساب الحياة، ومن كل الحسابات، لأن المهاجرين الأبديين تعلموا أن يسقطوا من الحساب كل ما سقط من ذاكرة الأم الأولى، ليبقى النداء السماوي معلقاً فوق رأس المهاجر كالقدر. يتوثّب ملهوفاً لإحياء صلة انقطعت في زمان بقي خارج الذاكرة، محاولاً أن يقلب النظام ويعدّل الخلل ويعيد خلق النّاموس الأوّل، ظنّاً منه أن الانسجام لن يتحقق إلاّ في الواحة المجهولة. ولكن الطلب يستمر، والبحث يتواصل، والقلب لا يتنازل ولا ينزل الأرض، والبدن لا يتحرر من الطين،

ولا يتلاشى في الضوء كي يصعد إلى السماء. يبقى التّائه ممزّقاً بين النقيضين، قلبه يحلّق في الفضاء يطلب الخلاص، وكوز الطين يزحف على الأرض، ممرّغاً الأنف في التّراب.

وفي مكان ما، في برزخ بين السّماء والصحراء، تقف قمم «تادرارت»، تبتسم بحزن من عرف السر وأدرك أن العصفور الذي يخفق ويتململ في القفص لن يعرف للخلاص طريقاً، ولن يفهم لغة الوعاء ما لم تتنازل السماء نفسها وتنزل لملاقاة الصّحراء.

جبال تادرارت هي التي ملأت قلب القرين بالأمل وأخبرته أن دخول «واو» رهين بهذا اللّقاء.

(٧)

عاد «اوداد» إلى سمائه، وغاب طويلاً. استبطأته الأم فجاءت إلى الخباء غاضبة. ضربت عجيزتها بيديها ولقّنتها تميمة تصنع من الكلمات حبل المسد: «إذا لم تقدر الأنثى أن تحتفظ بقرينها بالموهبة والعقل فلن يردّه لها إلاّ هاتين..» ثم ضربت فخذتيها بيديها مرة أخرى. ولكن تافاوت كانت تعلم منذ البداية أن المخلوق الذي وضع قلبه في واو لن تفلح في استعادته بردفيها الحسناوين. ابتسمت لأمّها وتحسّست الجنين الأخضر في بطنها.

(٨)

لم تعلّم الوليد رموز «تيفيناغ» وتعاليم الكتاب الضائع فقط، ولكنها آلت على نفسها أن تنفخ فيه من روح الشرائع المقدّسة التي تجعل من الذريّة مثالاً للأجيال، وفألاً للديمومة، وبدناً أخضر يعافه غول الفناء، ويهرب من وجهه شبح الزوال.

أرضعته من حليب أبجديات احتلّت فيها حروف اللّغة المرتبة الأخيرة. فالأنثى الصحراوية لا بد أن تجبل وليدها على الأعراف والشرائع والوصايا

أولاً حتى لو انتمت إلى قبائل الاتباع. لأن النّبل والزهد والشجاعة وعشق التّيه مُثُلٌ لم تكن يوماً حكراً على قبائل النّبلاء. وميراث الأبجديات المحفورة على الصّلد خُلقت لتتقاسمها الأجيال لتكون لها عقيدة للحياة قبل أن تصبح قناعاً تتخذه قبائل الصحراء راية تميّزها عن بقية القبائل.

ولكن الغزو (هذا القدر المعلّق فوق رأس القبيلة دوماً) لم يمهلها كي تكمل المشوار وتربّي في الوريث روح الوعد الأخضر. وكان عليها أن تفقده إلى الأبد كي تستعيده مرّة واحدة وإلى الأبد.

(٩)

.. لم تستعده بنفس الملامح، وبنفس البدن، كما لم تتلقّه من نفس الملاك الجبلي الذي رحل يوماً بحثاً عن واو ولم يعد أبداً، كما لم تتلقفه من خفقة القلب المفاجئة، الغامضة، التي زلزلتها عقب خروج القرين، ولم تجنِ من ورائها إلاّ الفجيعة والنزيف، لأنها لم تدرك أنها تعلّقت بشبح آخر أكثر شفافية من الملاك، وأبعد منالاً من واو، فآثر أن يفر مع الذئاب، على أن يسلّم قلبه لمخلوقٍ أرضي حتى لو كان هذا المخلوق حسناء صحراوية تستطيع وحدها أن تنقذ سلالة القبيلة من غول الزوال.

نعم..

جاء الوليد من العدم، فوجدت نفسها، ذات ليلة طلع فيها قمر حزين، بمعصمها في حين يعوي قطيع الذئاب في العراء الفسيح كأنه يبارك القرآن المقدّس.

موسكو - وادي الآجال (الصحراء الليبيّة) - ١٩٩١م

الفهرس